

الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية

# بطل الأبطال

أو

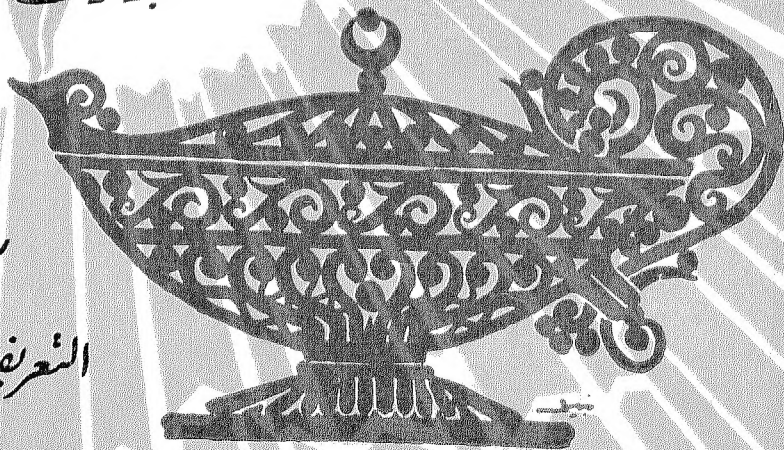
أبرز صفات النبي محمد

صلى الله عليه وسلم

بقلم

عبد الرحمن عزام

بجته  
الشعري بالاسلام



جراح بالمستشفى المالكي المصري

التعريف بالأعلام  
يصدرها  
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية  
بالقاهرة

# بطل الأبطال

أو

أبرز صفات النبي محمد  
صلى الله عليه وسلم

بقلم  
عبد الرحمن عزام

الكتاب الرابع عشر  
١٣٨٤ - ١٩٦٤

يشرف على إصدارها  
محمد توفيق عويضة



تقديم

بقلم

المغفور له الأستاذ الامام الشيخ

محمد مصطفى المراغى

الشيخ الاسبق للجامع الازهر



## بسم الله الرحمن الرحيم

### الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

(١)

هذه أحاديث أذاعها الأستاذ عبد الرحمن عزام منذ سنتين ، فتلقاها المستمعون بالاستحسان والشكران ، وود كثير منهم أن تنشر ، لينتفع بها من لم يسمعها ، ولينيسر لمن سمعها أن يقرأها متتابعة متصلة ، آخذة حقها من الامعان والتدبر . معطية القارئ نصيبه من الفائدة والغبطة.

(٢)

وقد أحسن الأستاذ عبد الرحمن عزام اذ اختار للاذاعة موضوعا رائعا جليلا ، فيه من العبرة والعظة ، ومن المثل والأسوة ، مالا ينفد على طول التفكير والتدبر ، هو سيرة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم . وأحسن مرة أخرى حين تناول السيرة من الناحية الخلقية ، والناس اليوم أحوج ما كانوا الى أن يهتدوا بأخلاق محمد ، ويقبسوا من نوره . تناول السيرة المحمدية ، فبين أخلاق الرسول الكريم ، وفصل القول في صفاته الكريمة ، على قدر ما وسع الحديث ، وأذن المقام . وزاد احسانا اذ استخلص هذه السيرة الكريمة من الحادثات ، فقرنها بحججها ، وعرضها في نور براهينها ، فلم يرسل القول دعاوى يعوزها البرهان ، ويلتمس لها الدليل ، بل جاء بالدعوى في شهود عدل ، من الوقائع البينة ، والروايات الصادقة .

### (٣)

تكلم المؤلف عن بحته صلى الله عليه وسلم عن الحق ، وثباته عليه ، وعن شجاعته ، ووفائه ، وزهده ، وقناعته ، وتواضعه ، وتعبدته ، وعفوه ، وصفحه ، وبره ، ورحمته ، وفصاحته ، وبلاغته ، وحسن سياسته ، وحكمته في تصريف الأمور ، وعن أثر الدعوة المحمدية في الفرد والجماعة ، فأبان للناس أروع ما عرف البشر من سيرة ، وأجمل ماوعى التاريخ من خلق ، وأعلى ما روت الأيام من عظمة : عظمة النفس ، المستمدة من صميم القلب ، ومكنون السرائر ، العظمة التي لا يكسبها الانسان بماله أو سلطانه ، أو منصبه أو جاهه ، ولكنها مشتقة من نفسه ، مفطورة في خلقه ، لا يزيدها الرخاء وتنقصها الشدة ، ولا يظهرها الغنى ويخفيها الفقر ، ولا يكبرها سلطان ويصغرها زواله ، ولا يقويها نصر وتضعفها هزيمة ، العظمة الثابتة في نفس العظيم ثبات قوانين الله في أرضه وسماؤه ، والسارية في أعماله سريان ارادة الله في سننه « فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا » •

هذه هي السيرة الرائعة ، التي تناول بعض نواحيها الأستاذ عبد الرحمن عزام ، فعرضها في جلالها وجمالها ، تحدوها البراهين ، وتحف بها الأدلة ، وتتجلى فيها النفس الانسانية في أكمل صورها ، في سيرة محمد صلى الله عليه وسلم .

### (٤)

قد أحسن المؤلف ، وأنا لندرجو أن يكون لكتابه من الفائدة والنفع ما يلائم هذا الاحسان ، ويكافئ المشقة التي تحملها ، والمقصد العظيم الذي قصده ، والاخلاص الذي يملأ نفسه ، ويتجلى في كل سطر مما كتب ، والله يحسن جزاءه ، وهو لا يضيع أجر المحسنين .



# بسم الله الرحمن الرحيم

## مقدمة الطبعة الاولى

أردت أن أذيع أحاديث في سير أبطال العرب ، وكم نشأت هذه الأمة الكريمة من أبطال ! فلما تتبعت سيرهم ورقيت في درجات البطولة درجة بعد أخرى ، انتهيت الى الذروة العليا ، التي طمح اليها أولئك الأبطال فسمت بنفوسهم ، والمثل الأعلى الذي نظروا اليه فأشربت قلوبهم العظمة والبطولة .

وبحثت فيما وراء بطولتهم من أسباب ، وما قادهم اليها من هدى وتعليم ، فانتهيت الى المورد الذي صدروا عنه والمنزل الذي رحلوا منه ، فاذا محمد صلى الله عليه وسلم هو الذروة العليا التي طمحوا اليها ، والمثل الأعلى الذي سموا اليه ، واذا هديه مصدر بطولتهم ، ومبدأ سيرتهم .

فحدثت نفسي أن أبدأ بسيرة معلم الأبطال وامامهم ، فأجللت الرسول الأعظم أن أسميه بطلا ، وأتناول سيرته في حديث الأبطال .

ثم قلت : انها أحاديث ، تخاطب المصدق والمنكر ، والمسلم وغير المسلم ، فلا بد أن أتحدث عن سيد البشر ، كما أتحدث عن البشر ، ليصغى الى الحديث ضروب الناس ، على اختلاف أديانهم ، وتفترق مذاهبهم . وسترتقى هذه السيرة ، لا محالة ، بمستمعها الى الغاية التي ينقطع دونها كل بطل — الى الرسالة التي تسمو بصاحبها عن البطولة وحديث الأبطال .

فأجملت الكلام في السيرة الخالدة ، على قدر ماوسع علمي ووقتي ، وأردت أن تكون فاتحة لأحاديث طويلة في بطولة العرب ، وبسمة للسيرة

الرائعة في تاريخ البشر ، فحالت حوائل دون المضي في الأحاديث الى غايتها ،  
فوقفت راجيا أن تتاح الفرصة لى أو لغيرى ليتم الحديث •

وأشهد أنى لم أبلغ من تجلية السيرة ما يكافىء عظمتها ، ولا ما قصدت  
اليه ، ولكنها فاتحة أرجو أن يكون وراءها أحاديث مستوعبة في السيرة  
الكريمة ، على هذا النمط .

والله يهيىء لنا من كل أمر رشدا ، ويهدينا للننى هى أقوم ، بالافتداء  
بسيرة سيد البشر ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

**عبد الرحمن عزام**

## مقدمة الطبعة الثانية

منذ عشرين سنة كنت أتحدث في الاذاعة المصرية عن أبطال العرب ، فلما ابتدأت بسيد العرب ، بل سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم ، تضائل في نظري كل حديث عن الأبطال . وخرج من تلك الأحاديث هذا الكتاب ونشر ، وتحدث الناس عنه حديثا حسنا ، وأمل كثيرون أن يعاد طبعه وأن يعم نفعه ، اذ رأوا فيه خلاصة مركزة لسيرة الرسول مستمدة من جميع المصادر الصادقة .

وقد كنت حين كتابة أحاديث عن أبرز صفات الرسول صلى الله عليه وسلم أقرأ كل ما وصل الى من كتب المسلمين والأجانب في لغات شتى . ولكنى كنت أتحرى الاختصار والحقيقة ما استطعت الى ذلك سبيلا .

وأظن أن هذا الكتاب على صغر حجمه يتناول الوقائع ويشير اليها بحيث أشعر حين أقرؤه بعد عشرين سنة من كتابته أنه يثير في نفسى مشاعر وحوادث من السيرة لا يجمع شتاتها الا كتاب كبير .

ولعل يسره وسهولته يعينان ناشئتنا من العرب والمسلمين على ادراك ما فى دينهم من سمو على المذاهب كلها قديمها وحديثها ، وعلى أن رسول هذا الدين ورمزه هو القدوة التى يقتدى بها من يريد أن يحيا حياة طيبة فى هذا العصر ، بل وفى كل العصور . فالذين ينشأون من أبناء المسلمين فيتطلعون الى قادة الأمم وأبطالها ويتخذون منهم مثلا سيجدون أن أعلى من يؤتم به ويعلو على الأبطال جميعا هو امام هذه الأمة وسيدها محمد صلى الله عليه وسلم ، اذا ما يسر لهم أن يطلعوا على مثل هذا الكتاب فى سيرته الشريفة .

**عبد الرحمن عزام**



## جنته عن الحق وثباته عليه

ان ذكرى الأبطال ، والتحدث عنهم ، لمن أحب الذكريات ، وأطيب الأحاديث ، ذلك لأنهم أعلام الهدى في تاريخ البشرية ، وأنهم المنارات في آفاق الظلمات .

ومن هؤلاء الأبطال من امتازوا باتساع دائرة تأثيرهم وسلطانهم ، فلم تقم في وجوههم عقبات العصبية ، ولا عقبات الزمن .

أولئك هم المبرزون في تاريخ الانسانية ، وأولئك هم الذين كان لاصلاحهم الخلود والاثر الباقي . وأعظم هؤلاء هو محمد صلى الله عليه وسلم ، باجماع المفكرين .

يقول فيه — كرلايل — كان مولده مبعثا للنور من الظلمات . ويقول السير موير : لم يكن الاصلاح أعسر ، ولا أبعد منالا منه وقت ظهور محمد ، ولا نعلم نجاحا واصلاحا تم ، كالذى تركه عند وفاته . ويقول ليونارد : ان كان رجل على هذه الأرض قد عرف الله ، وان كان رجل على هذه الأرض قد أخلص له ، وفنى في خدمته بقصد شريف ، ودافع عظيم ، فان هذا الرجل بلا ريب هو محمد نبى العرب . وفى دائرة المعارف البريطانية : لقد صادف محمد النجاح ، الذى لم ينل مثله نبى ولا مصلح دينى في زمن من الأزمنة . ويقول بوزورث اسمث : ان محمدا بلا نزاع أعظم المصلحين على الاطلاق .

فمحمد الذى هو في نظر المسلمين خاتم الأنبياء والرسل ومعلم الأبطال ، هو في نظر المفكرين من أهل الملل الأخرى ، أكبر المصلحين على الاطلاق ، فلا يحق لنا أن نتحدث عن البطولة دون أن نشرف حديثنا به أولا .

في سنة ١٩٢٨ ميلادية وقفت لأول مرة على قبر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم مأخوذاً بأسورا لهذه البطولة ، فكنت أجد أمام الضريح طيب المقام ، كما أجد في تلك الحضرة التي توحى أعظم ذكرى ، ريح الخلود هنا روح لا يزال يشرق من غيابة الماضي ! هنا الرجل ! هنا بطل الأبطال ! وأى الناس لا يجد في أحد الأبطال مثله الأعلى ؟ كنت اذا هممت بالانصراف خلفت ورائي كل الرجاء ، وكل المقصود ، واذا أقبلت صاحبنى الى القبر خشوع من الحب والاكبار . فأى النواحي لمحمد هى التى ملكتنى أكثر من غيرها ؟ ذلك ما سأحاول الكشف عنه فى أحاديثى .

كانت ناحية الرجولة تهز مشاعرى ، وستهز مشاعر الناس مدى الدهر ، سواء آمنوا أم كفروا . فلو لم يكن محمد هذا الرسول الكريم معدا بالفطرة للرسالة العظيمة التى قام بها ، لما كان رسولا . ولو لم يكن ذلك الروح المشرق أهلا للاتصال بالقوى الالهية ، اتصالا فوق العادة ، لما أمكن أن تلقى اليه كلمة الله . والى ذلك يشير القرآن الكريم بقوله : « الله أعلم حيث يجعل رسالته (١) » .

فمحمد خلق عظيما قبل أن يوحى اليه ، وقبل أن يكون رسولا . نفر منذ صباه من عبادة الأوثان ، وهى آلهة آبائه ، ومصدر عزتهم فى جزيرة العرب كلها . وكان منذ صباه الصادق الوفى ، المحبوب المبجل فى قومه ، فسماه قومه الأمين .

وكان فضله ظاهرا منذ شبابه ، فدعته امرأة من صواحب الثروة الواسعة فى قريش ومن أعلاها نسبا ، الى التزوج بها مع علمها بفقره .

ولما وقف لأول مرة على الصفا يدعو عشيرته الى دينه قال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلا تخرج بسفح هذا الجبل أكتنم مصدقى ؟ قالوا ماجربنا عليك كذبا . قال فانى نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

---

(١) سورة الأنعام الآية ١٢٤ .

كان قبل الرسالة أشد الناس نفورا من الظلم ، وهضم حقوق الضعفاء ،  
فما تحمس لعمل في الجاهلية تحمسه لحلف الفضول ، وهو : أشرف حلف في  
العرب . وسببه أن رجلا من زبيد ، من أهل اليمن ، باع سلعة من العاص بن  
وائل السهمي ، فظلمه بالثمن ، فذكر ظلامته في قصيدة مطلعها :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته

بيطن مكة نائي الدار والنفر

فلما سمع بنو هاشم ذلك دعوا الى تعاقد وتعاهد سمي حلف الفضول ،  
فلا يجدون بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ، ممن دخلها من سائر الناس ،  
الا قاموا معه ، وكانوا على من ظلمة ، حتى ترد عليه مظلمته .

وفي هذا الحلف يقول محمد صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة : « لقد  
شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو  
أدعى به في الاسلام لأجبت » . فنصرة الفقير والضعيف ، هي أحب الأمور  
الى نفسه .

ولد محمد صلى الله عليه وسلم كامل الخلق والمروءة ، وعاش ولم يكن  
لليئة سلطان على نفسه ، بل كان طلب الحق والثبات عليه ، أبين صفاته  
الحميدة .

وسنضرب بعض الأمثال على تلك الصفة البارزة في حياة بطل الاسلام  
الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

انظروا اليه وقد ولد في بيت رياسة متوارثة ، عن هاشم عن عبد مناف  
عن قصي ، قصي الذي دانت له الرقاب ، واستأثر في مكة بالسلطان ، وانفرد  
قومه قريش بالقيام على دين العرب ، ورعاية أصنامها ، وسدانة كعبتها ،  
والسقاية والرفادة ، وما الى ذلك من المناصب ، التي ترفع الذكر في طول  
البلاد وعرضها .

فهل منع هذا الميراث محمدا من طلب الحق والثبات عليه ؟ كلا ! لقد سفه أحلام آبائه ، ودعا الى هدم النظام الدينى ، الذى كان به فخر عشيرته وساطانها .

وانظروا كذلك اليه فى بنى عبد مناف ، وبين بنى هاشم والمطلب ، يلقي رعاية لم يُلها أحد من صبية هذا البيت . فهو الوحيد من البنين والحفدة ، الذى كان يجلس على فراش جده سيد القوم .

كان يوضع لعبد المطلب فراش فى ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه هذا ، حتى يخرج اليه ، ولا يجلس عليه أحد من بنيه ، اجلالا له ، فكان رسول الله يأتى وهو غلام ، فيجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه ، فيقول عبد المطلب اذا رأى ذلك منهم : دعوا ابنى ، فوالله ان له لشأنا ، ثم يجلسه معه عليه ، ويمسح ظهره ، ويسر بما يراه يصنع .

وتهيأ عمه أبو طالب للرحيل الى الشام فى تجارة ، فلما أجمع المسير ضُرب (١) به محمد صلى الله عليه وسلم فرق له ، وقال : والله لأُخرجن به معى ، ولا يفارقنى أبدا . فخرج به معه ، يحمله فى ذلك السفر الشاق الطويل .

هذا التدليل والبر الذى حباه اياه جده وعمه ، كان جديرا أن يصرفه الى دين آبائه ، ولكن نفس محمد صلى الله عليه وسلم لم تسكن الى غير الحق ، فلما وجدته ثبت عليه فى وجه قومه المدللين له ، والبررة به . فأى مثل فى طلب الحق أعظم من ذلك الذى ضربه محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ولما أوفدت قريش زعماءها الى أبى طالب تنذره ، وتطلب اليه أن يكف ابن أخيه عنها ، أو تنازله حتى يهلك أحد الفريقين ، عظم الأمر على أبى طالب ، وخشى دهاء العرب أن يركبوه مع قومه ، فبعث الى محمد : ان قومك قد أندرونى ، فأبق على وعلى نفسك ولا تحملنى من الأمر مالا أطيع .

(١) أى تعلق به .



فأجاب محمد : يا عمى ، والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته ! وبكى وقام ، فلما ولي ناداه أبو طالب : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل ، فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبدا .

فبكاء محمد في طفولته ألزم أبا طالب أن يحمله الى الشام ، وبكاؤه في كهولته جعله يعرض نفسه وأهله للهلاك . فلو لم يكن الحق الذي دان به محمد قد ملك قلبه ، فلا يرى سواه ، لكان وفاء عمه له هذا الوفاء ، كافيا لصدده عما هو فيه ، أو كان كافيا على الأقل لقبوله هدية يفرج بها عن عمه وأهله كربهم . فأى ثبات على العقيدة أعظم من هذا الثبات ، وأى امتحان للآيمان أكثر من هذا الامتحان ؟

هذا المقام وأبو طالب مهدد بالهلاك ، منذر من قریش ، ومن ورائها دهماء العرب ، يستعطف رسول الله لينزل عن رأيه ، فلا يجد الا الالباء والبهكاء . هذا المقام ، والأعاصير تعصف بالرجلين ، وأضعفهما يريد هدم دين الآخر . . هذا المقام صورة من أبدع الصور ، تبقى أبد الدهر مثلا لسعة الصدر ، وحرية الرأي ، والتكافل ، والوفاء ، والصبر ، يقوم فيه رسول الله صورة صادقة لحب الحق ، والثبات على العقيدة .

ثم انظروا صورة أخرى ، هي مثل في الكرامة والوفاء ، وحرية الرأي . انظروا الى رجل من آل عبد المطلب كان مولعا بالصيد ، يخرج كل يوم للqnص ، فاذا مارجع طاف بالكعبة ، ثم مر بأندية قریش يسلم على أهلها ، ويتحدث ، وكان أعز فتى فيهم ، وأبعدهم عن دين محمد ، هو حمزة بن عبد المطلب . رجع يوما من قنصه ، وطاف بالأوثان كعادته ، فقالت له جارية : ان أبا الحكم بن هشام ( أبا جهل ) ، وجد محمدا هاهنا جالسا ، فسبه ونال منه ما يكره ، وانصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ، فغضب حمزة وثار ، وقصد الى أبي جهل في مجمع قریش ، وضربه بالقوس ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول .!

انظروا هذه الصورة : أعز فتى فى قریش يتقرب الى أصنامها ، ويأنس بأنديتها ، يخرج على القوم ودينهم ، غضبا لكرامة ابن أخيه ، وتحديا للذين تعرضوا لحرته .

هل هناك أعظم من هذا الوفاء والبر بمحمد ؟

ثم انظروا اليه صلى الله عليه وسلم يشهد هذا الوفاء ، ويرى بنى عبد المطلب فى فم الأسد ، ولا يتزحزح عن مقامه ، بل يهزأ بالدنيا ، ويقول : « لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، ما تركت هذا الأمر أو أهلك دونه » .

أرايتهم كيف يعشق الحق ؟ وكيف يكون الثبات عليه ؟ تلکم أظهر صفات محمد صلى الله عليه وسلم .

انظروا اليه كذلك فى صورة أخرى : يفاوضه عن قومه عتبة بن ربيعة بجانب الكعبة ، فيقول له : يا بن أخى ، انك منا حيث قد علمت ، من البسطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وانك قد آتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال محمد : قل ياأبا الوليد . قال عتبة : ان كنت انما تريد بما جئت به مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا ، سودناك علينا ، حتى لا تقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد به ملكا ، ملكناك علينا ، وان كان هذا الذى يأتىك رؤيا تراه لاتستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا ، حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ قال له محمد : استمع منى ياأبا الوليد :

« بسم الله الرحمن الرحيم : حم تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فصلت

آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ومضى يتلو عليه ، وكان ذلك كل جوابه لما عرضت قریش .

فلو لم يكن الحق الذى ملأ نفسه هو مطلبه الأسمى ، لوجد فى رفق قومه المخاصمين له ما يطفىء من حماسته ، ويسكن من ثورته على دينها وآلهتها .

ثم انظروا الى محمد فى بيته بين خديجة وبناتها وخدمها قريرا منعا . فهو من أغنى قریش ، وأوسطهم نسبا ، نما مالها بين يديه ، فخلا من هموم الدنيا ، ومطالبها الملحة ، وهاكم دليلا على طيب المعاشرة والمجبة فى بيت محمد ، قصة زيد بن حارثة .

هذا رجل من العرب استرق ، فاشتريته خديجة ، ووهبته لمحمد عبدا مملوكا . فأعتقه وعاش فى بيته ، فاستدل عليه أبوه ، وجاء ليفديه ، فقال محمد لأبيه : انه حر فليختر ما يشاء ، فأثر زيد محمدا على أبيه .

ومثل آخر يدل على حاله فى نظر أعرف الناس به ، وهى زوجته . لما جاءه الوحى لأول مرة ، ورجع اليها خائفا وجلا ، تلقتة بهذه الكلمة : كلا . والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ففى قولها وفعلها كل الدليل على ماكان فى بيت محمد من الهناء المنزلية . فما الذى أخرجه اذن من دعة هذا البيت وسكونه ، الى الثورة على دين مكة ، يلقي فيها الأذى والاضطهاد ؟

لاشك أن الذى أخرجه هو شئ أعز عليه من زوجه وبنيه ، وعشيرته التى تؤويه ، ذلكم هو الايمان بالحق الذى دعا اليه ، والذى لا يبغي غيره ، ولا يعيش الا له .

تلكم نفس محمد ، خلقها المتجلى فى كل صورة من صورها ، حب الحق والثبات عليه .

لقد سألت مرة — ونحن في قطار في لندرة — أحد كبار العلماء  
المستشرقين : هل تظن أن محمدا كان يقول قولاً لا يؤمن به ؟ فقال : لا !  
إن أمراً واحداً لا ريب فيه ، وهو أنه كان صادقاً مؤمناً إيماناً كاملاً بما يقول ،  
وبما يدعو إليه .

تلك هي الصفة التي لا ينكرها على محمد عدو ولا صديق .

فالحق في ذاته هو الغاية التي دأب وراءها ، وخاصم وابتلى وهاجر  
وقاتل لها . والناس جميعاً طلاب للحق ، أو يجب أن يكونوا كذلك ، وقد  
ضرب لهم محمد المثل الأعلى .

ولا يزال رسول الله في ميدان البطولة ، تمر بين يديه أبطال العرب  
وغير العرب ، كما تمر مئات السنين ، وهو المثل الأعلى للشباب على الحق ،  
والدعوة إلى أن يكون الناس كافة لله عبيداً ، وفيما بينهم أخوانا .

## شجاعة

حديثنا هنا يرمى الى تصوير الشجاعة التى انطوت عليها نفس محمد صلى الله عليه وسلم ، تلك الشجاعة المنقطعة النظير . وقد آثرت أن أصور حالة المجتمع العربى وقت ظهور الدعوة ، ومقدار نفور القوم منها ، ليدرك الناس مدى الكفاح الذى كافحه محمد ، ومقدار ما يلزم لمثل هذا الكفاح من الشجاعة . كما آثرت سوق أمثلة من مواقفه صلى الله عليه وسلم ، تبين بسالته محاربا ، وشجاعته النفسية مصلحا دينيا ، وسياسيا ، واجتماعيا .

جاء محمد لقومه بدعوة ، فى قبولها قلب حياتهم رأسا على عقب . لم تكن تلك الدعوة تتناول دينهم وحده ، بل شملت حياتهم فى جميع مظاهرها : فى السياسة ، وفى الاجتماع ، وفى المال ، وفى البيت . ولم يكن طبيعيا ولا مألوفاً أن ينكروا ما وجدوا عليه آباءهم وبلادهم طوعية ، فكان اذن لابد لهم من رد هذه الدعوة ، وقهر صاحبها ، ليرجع الى الصف الذى خرج عنه ، فيعظم حرمانهم التى يعظمون .

كانت مكة للعرب محط الرحال ، ومصدر الهدى ، اليها يحج الناس خاشعين ، وفيها قريش سدنة الكعبة ، وحماة البيت ، أتاحت لها تلك المكانة الممتازة أن ترحل فى الصيف الى الشام والعراق ، وفى الشتاء الى اليمن ، أمنة على نفسها وأموالها وتجارتها ، فأثرت واعتزت ، وامتن الله عليها بقوله : « لا يلاف قريش ايلافهم . رحلة الشتاء والصيف فليعبدوا رب هذا البيت . الذى أطعمهم من جوع ، وآمنهم من خوف » .

فقريش الآمنة ، العزيزة الجانب المثرية ، لاشك تعادى من يريد لدينها تبديلا ، ولنظامها تغييرا ، ومحمد يدعو أولا الى التوحيد ، وينذر ثانيا

بالبعث ، فلا همى راضية باله غير آلهتها ، ولا همى واجدة فى البعث والحساب الذى يندرها به ما تعقله أو ترضاه .

وعبادة الأوثان ، وإن بانث لنا الآن بعد مئات السنين من قبول التوحيد غريبة منكورة ، لم تكن كذلك فى عهد محمد ، بل كانت اليهودية والنصرانية محل سخرية العرب ومقتهم ، وكانت الوثنية مستقرة فى نفوس القوم . والعجيب من شأن هذه الوثنية التى يأبأها العقل ، أنها قريبة لغرائز البشر ، فقد ارتد إليها بنو إسرائيل سراعا فى غيبة موسى ، وقالوا : « اجعل لنا الها كما لهم آلهة » .

وعبد المصريون القدماء آلاف السنين أنواعا من الأوثان والكواكب والحيوان ، فليس بعجيب أن نرى قريشا يعز عليها فراق ما عبده آباؤها جيلا بعد جيل .

ولو أن محمدا قصر دعوته على التوحيد ، وتسفيه أحلام القوم ، لكفى بذلك اعناتا ، ولكنه دعا كما قلت الى الايمان بالبعث ، فاستغربوا ذلك . واستبعدوه كل الاستبعاد ، وقالوا : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون » .

سخرخوا من هذه الفكرة ، واستدلوا بها على ضعف رأى صاحب الدعوة . مشى اليه يوما أبى بن خلف بعظم بال ، فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا ! ثم فته بيده ، ثم نفخه فى الريح نحو رسول الله . فرد القرآن على ذلك بقوله : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم ؟ قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم » . صدمت الدعوة الى التوحيد والبعث دين قريش وعقلها فسخرت من الداعى ، ثم هبت الى الايذاء والعدوان .

لم يكتف محمد بدعواه هذه الغريبة فى رأى القوم ، بل زاد عليها أن دعا الى تحريم الخمر ، والزنا ، والميسر ، والربا . وقريش لاستغنى عن هذه الأربعة ، ففيها متعهم ، وفيها تفاخرهم ، وفيها غناهم وثروتهم .

فربا قريش كان في القبائل كلها ، ومحمد يريد أن يحرم عليها ما تعده من طيبات الحياة ، ومصادر الثروة ، فأنى لها أن تستطيع على ذلك صبرا ؟ . ولكى نتصور تمكن الخمر والزنا والميسر والربا من نفوس القوم ، أسوق لكم مثلا ، تعلمون منه كيف كانت الرذيلة سلاحا في يد قريش ، تنفر به العرب من دعوة محمد : جاء أعشى قيس الى مكة يريد الاسلام ، ويمدح الرسول بقصيدة يقول فيها :

وآليت لا أرثى لها (١) من كلاله ولا من حفى حتى تلاقى محمدا  
نبي يرى مالا ترون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

فلما كان بمكة ، أو قريبا منها ، اعترضه بعض المشركين من قريش ، فقال له : يا أبا بصير (٢) ، انه يحرم الزنا ، فقال الأعشى : والله ان ذلك لأمر مالى فيه من أرب فقال له : يا أبا بصير ، فانه يحرم الخمر ، فقال الأعشى : أما هذه فوالله ان فى النفس منها لعلالات ، ولكنى منصرف ، فأتروى منها عامى هذا ، ثم آتية فأسلم ، فانصرف ، فمات فى عامه ذاك .

لم يكتف محمد بالتوحيد ، والبعث ، وتحريم بعض ما طاب لنفوس القوم ، بل دعا كذلك الى أمر غريب مستنكر لديهم ، ذلك هو حق المساواة ، وهم الذين قضوا أعمارهم فى التفاخر بالأحساب والأنساب . فما بال محمد يخرج عليهم بالمساواة بين السادة والعبيد ، ويجعل الناس سواسية كأسنان المشط ؟ انها للكبيرة التى لن ترضى قريش أن تقره عليها ، قريش التى أنفت أن تسوى بالناس ، فحرفت لذلك دينها ، وأنفت أن تقف على عرفة ، وأن تفيض منه كما يقف الناس ويفيضون ، وهى تعلم أن ذلك من مشاعر ابراهيم وفرائض الحج .. قريش التى ألزمت العرب ألا يطوفوا بالبيت فى أثواب جاءوا بها من البدو ، فطافوا عرا .. قريش التى كانت تختص بأنواع الامتياز .

(١) ناقتة .

(٢) كنية الأعشى .

التي جعلتها لنفسها كما تشاء ، كيف ترضى لمحمد أن يدعو للمساواة المطلقة ،  
وأن يقول لعشيرته : يا بني هاشم لا يجئني الناس بأعمالهم وتجيئونني  
بأنسابكم ..

بل من الغريب أن محمدا ، وهو في بيت الرياسة من قريش ، وفي طليعة  
الممتازين ، رفض في الجاهلية ضروب هذا الامتياز ، وسوى نفسه ببقية الأمة  
قبل أن يكون رسولا يوحى اليه .

لم تستطع قريش صبرا على الدعوة الى المساواة ، فبطشت بالعبيد ،  
وقست على المستضعفين الذين وجدوا في قول محمد انصافا .

ولم يكتف بأن عاب أوثانها ، وأنذرها بيعث وحساب شديد ، وقوض  
جاهها وسلطانها ، وحرمها شهواتها والاتجار بالربا ، وسوى بينها وبين العبيد  
والمستضعفين بل قام يطلب لهؤلاء العبيد والفقراء وأبناء السبيل حقا في أموال  
الأغنياء : « والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم » يؤخذ منهم  
قسرا ، ويضرب عليهم ضريبة ، وما كان أبغض الى نفوس القوم من ضريبة  
يؤدونها مفروضة ! فلما مات الرسول كانت تلك الضريبة أول ما عصوا عليه ،  
وارتدوا من أجله .

ذلك مجمل من القول يصور لكم حالة المجتمع الذي قام فيه محمد  
داعيا الى الله ، والى نظام سياسى واجتماعى بغىض الى القوم . وقد صور  
ذلك القرآن في أبداع ايجاز بهذه الآية : « وقالوا ان تتبع الهدى معك  
تتخطف من أرضنا » .

إذا تصورتهم ذلك كله ، أدركتم ما ينبغى لمثل هذا الكفاح من الشجاعة  
والصبر ، والشجاعة والصبر هما عماد البشرية ، يسكانها على الأرض كما  
تمسكها الجبال أن تميد بمن عليها . وقد ضرب الأبطال والشهداء للناس  
أمثلة في الشجاعة هي النور في تاريخ الحياة ، يهدي الى الحق والى صراط  
مستقيم . وقد امتحنت شجاعة معلم الأبطال صلى الله عليه وسلم طول حياته ،



فما تطرق إليها وهن . هذه الشجاعة لازمتها منذ الصبا ، فهو فيها المجلى في الجاهلية والاسلام .

استحلف مرة وهو صبي باللات والعزى ، فقال : لا تسألنى بهما شيئا ، فوالله ما بغضت شيئا بغضى لهما .

هذا الصبى يتحدث بهذه الجرأة عن آلهة القوم ، لا يخشى بطشا ، وهو المشهور بالحياء ، حتى قيل فيه : انه كان أشد حياء من العذراء في خدرها .

خرج الى اليمن في قافلة مع عميه ، وكان في السابعة عشرة من عمره ، فرأوا في واد فحلا من الابل ، قد توحش وجمح ، فتعرض له محمد وكبح جماحه .

وفي حرب الفجار وهو دون العشرين كان ينبل على أعمامه . واعترض القافلة واد ملء ماء ، فهابته الجماعة ، فتقدم وقال : اتبعونى ، اتبعونى .

هذه أمثلة من جرأة الصبا ، ولكن الأمثلة التى نريدها ، والتى ينحنى لها أبطال العالم اكبارا واجلالا ، هى تلك التى ضربها بعد الرسالة ، وبعد أن جهر بالدعوة وقال الله له : « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » . قال على : كنا اذا حمى البأس ، واحمرت الحديق ، اتقيننا برسول الله ، فما يكون أحد أقرب الى العدو منه .

وهاكم حادثتين ، هما عندى المثل الأعلى في شجاعة المحارب : فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبل صوت ، فتلقاهم رسول الله راجعا ، وقد سبقهم الى ذلك الصوت ، واستبرأ الخبر على فرس عرى ، والسيف فى عنقه ، هو يقول : لن تراعوا .

ويوم حنين وقف على بغلته ، والناس يفرون عنه ، وهو يقول :  
أنا النبى لا كذب      أنا ابن عبد المطلب

فما رآى أحد يومئذ كان أثبت منه ، ولا أقرب للعدو .

ولقد اخترت هاتين الحادثتين من تاريخ طويل ، لأن الأولى منهما هب فيها رسول الله الى مكان الخطر ، قبل أن يتحرك الناس ، وفي الثانية ثبت في مكان الخطر وقد فر الناس . والذين لهم علم بالحرب يعرفون أنه بهذين الموقفين تمتحن الشجاعة ، فليس أصعب على النفس من السبق الى الخطر ، ولا من الصبر عليه وقد استولى الخوف ، وغلب الرعب .

هذه الشجاعة التى امتاز بها أبطال الأمم ، والتى كان لمحمد فيها النصيب الأوفر ، ليست عندى الشجاعة التى اختص بها رسول الله ، والتى هى أعلى صفات البطولة . ولكن شجاعته حين خرج على قومه مفاجئا بالدعوة التى كرهوها ، وشجاعته وهو يصابر على الأذى والسخرية ، وشجاعته وقد تعاهدت قريش فى صحيفة علقت بالكعبة على مقاطعة عمه أبى طالب ، ومن تبعه من بيت هاشم والمطلب ، لحمايتهم له ، فبقوا فى الشدة ثلاث سنين ، وهو على هذا ، دأب على أن يصلى فى البيت ويجهر بالقرآن ، وشجاعته وقد بعث أنصاره الى الحبشة فرارا من الأذى والموت ، وصبره هو بعدهم وحيدا يتعرض للأذى والموت ، وشجاعته وقد مات عمه أبو طالب وزوجه خديجة فى أيام متتابعات ، وكان فى عمه وزوجه النصير والوزير ، ثم يبقى بعد ذلك قائما بمكة ، تمر الحادثات عليه كأنها الأعاصير تعصف فى ذروة الطود الراسخ ، وثباته فى الموقف وحيدا اذ يعرض نفسه على القبائل ، ويلقى السخرية وأشنع الرد بالقول والفعل حتى اذا ما انصرف كل أنصاره مهاجرين ليثرب ، جاء البيت يوما بعد يوم يقيم صلاته ونسكه جهرا ، ويتلو القرآن جهرا .

تلك صور لو رسمت وعرضت ، لكانت أبهج ما تنشرح له صدور الأبطال فى كل جيل وأمة ، ولجعلت امامته فى الشجاعة النفسية مرضية للأجناس والأديان : سودا وبيضا ، موحدين ومشركين .

تلك الشجاعة النفسية أو الأدبية التى لا تهن للسخرية ، ولا تذلل

للوعيد ، ولا تطيش للوعد ، والتي أمسكت الخلق المحمدي ، فكانت سنده الذي لا يتزلزل ، هي شجاعة مقطوعة النظير في تاريخ البشر .

انظروا اليه وقد سلطوا عليه سلاح السخرية ، وهي أفتك ما يكون بالعزيمة ، وأقتل ما يكون لحماس الرجال ، هي أفتك من الأذى والاضطهاد .

وقف مرة على الصفا ينادى قريشا ، فلما جاءوا يستمعون أنذرهم حساب الله فتركوه وانصرفوا ، ولم يزد أبو لهب على أن قال : تبا لك ! ألهذا دعوتنا ... ؟

كانوا يتواصون فيما بينهم : « لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون » .

فهم كانوا يعلمون أن سلاح الهزء والسخرية أنكى على الدعوة من الاضطهاد والأذى ، فلم يغفلوا عن هذه السخرية ، فلما أشار القرآن الى شجرة الزقوم تخويفا لهم ، ازدادوا بها طغيانا ، وقال بعضهم مستهزئا يا معشر قريش ، أتدرون ما شجرة الزقوم التي يخوفكم بها محمد ؟ انها عجوة يشرب بالزبد ، والله لئن استمسكنا بها لنتزقمنها تزقما ..

ولما أشار القرآن الى جهنم ، وأن عليها تسعة عشر من الزبانية . قال أبو جهل وهو يهزأ برسول الله : يا معشر قريش ، يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ، ويجبسونكم فيها تسعة عشر ، وأنتم أكثر عددا ، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم ؟

فنزل القرآن : « وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم الا فتنة للذين كفروا » .

كان الرسول اذا جلس مجلسا يعظ الناس خلفه في مجلسه « النضر بن الحارث » وكان قدم الحيرة ، وتعلم بها أحاديث الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فيقول : يا معشر قريش . أنا والله أحسن من محمد حديثا ، فاهلوا الى ، فأفا أحدثكم ، وأنزل مثل ما أنزل الله ، ثم يحدثهم عن رستم واسفنديار وملوك الفرس .

انظروا أيضا الى هذه السخرية بمحمد وأتباعه :

ذهب خباب بن الأرت أحد المستضعفين من أصحاب رسول الله ، وكان صانعا للسيوف ، ذهب يتقاضى من العاص بن وائل ، أحد عظماء مكة ، أجر ما صنع ، فقال له : يا خباب أليس يزعم محمد صاحبكم أن في الجنة ما ابتغى أهلها ؟ قال خباب : بلى ، قال : فأنظرني الى يوم القيامة يا خباب ، حتى أرجع الى تلك الدار فأقضيك هنالك حَقَّك ، فوالله لا تكونن أنت وأصحابك يا خباب أثر عند الله منى ولا أعظم حظا .

وكان الوليد بن المغيرة قد انفرد بالرياسة في مكة ، وأبو عروة بن مسعود الثقفي قد انفرد بالرياسة في الطائف ، فكانوا يقولون تهكما : « لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » تصغيرا من شأن محمد ، وزرارة به .

لم تزد هم هذه السخرية على اضرارها بالدعوة الا غفلة . ولا زادته الا صبرا واستبسالا ، فمرت السنون على هذا التهكم والأذى ، والشجاعة النفسية تسنده ، وتعلو به ، وتقر هيئته ، وتلقى الرعب في نفوس أعدائه . فلما تحطمت أسلحة السخرية والأذى على جنبات النفس الأبية ، وتأمر المشركون على قتله ، خرج مستخفيا مهاجرا ، فكان وهو في الغار يقول لصاحبه : « لاتحزن ان الله معنا » .

وابتدأ بذلك دور الصراع ، الذي لمع فيه السلاح ، كما لمعت النفس التي صقلتها الشجاعة ، فعرف رسول الله كيف يصبر ويرضى ، وكيف يثور ويعضب ، وبقي خالدا تنطوى صفحات الأبطال ، وصفحته منشورة تقرأ فيها آيات الشجاعة والصبر ، ويظل بها رسول الله المثل الأعلى .

## وفاء

تحدث هنا في وفاء بطل الأبطال محمد صلى الله عليه وسلم ، وفائه لأعدائه ، ووفائه لأصدقائه .

والوفاء هو القوام لمكارم الأخلاق . به تستقيم الحياة ، وهو ميزان المروءة ، ومقياس الفضل في الأفراد والأمم ، ولو دان به الناس لوجدوا السعادة كاملة .

يحدث الوفاء في نفس الوفي من الغبطة مالا حد له ، وفي نفس الموفى له الرغبة في البر والمروءة ، واصطناع المعروف عند الناس . والأمم الوفية تبتغي صداقتها ، ويرغب في معاهدتها ، ويوفى لها بدمتها .

انظروا الى العالم المضطرب الذي نعيش فيه ، أليس عدم الوفاء قوام هذا الاضطراب ؟ اذا كان الحليف لا يأمن عهد حليفه ، فأنى لأحدهما أن يستقر الى ضمان من هذا العهد ، يقيه مظنة السوء ، ويكفيه شر الخوف ، ويوفر عليه نفقات الاستعداد ليوم الغدر .

لو أن العهود والمواثيق كان لها من الحرمة ما أراد بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، لما هبط العالم الى حياة الدس والكيد ، والذمم المخفورة ، والجوار المنتهك . ولو سار المسلمون على النهج الذي نهجه ، واقتدى بهم غيرهم ، لوضعت العلاقات الدولية على أثبت القواعد التي تكفل السلم ، وتضمن الانصاف ، وتستبقى الكرامة للناس جميعا . انظروا الى هذه الأمثال نسوقها ، لتروا صورا من الوفاء ، هي أروع ما ينظر اليه الناس .

قبل سنة من هدنة الحديبية ، كانت قريش تحاصر المدينة ، وقد جمعت لذلك الأحزاب من أهل القرى والأعراب ، فنقض بنو قريظة عهدهم مع

رسول الله ، واشتد بذلك الكرب ، وزلزل المؤمنون زلزالا شديدا ، ولكن الله نصر عبده ، وأعز جنده ، وألقى الرعب في قلوب المشركين ، ولم تمض الا فترة وجيزة حتى كان جيش الاسلام بقيادة رسول الله يزحف الى مكة ، فنزل الحديبية ، وبعثت قريش رسلها الى محمد صلى الله عليه وسلم .

وهاهو ذا عروة بن مسعود الثقفي رسولها يعود اليها ، يصف حال محمد وجنده بهذه العبارة : اني قد جئت كسرى في ملكه ، وقيصر في ملكه ، والنجاشي في ملكه ، واني والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه ١٠

كان محمد في منعة وقوة ، ولكنه كان يعلن أنه لا يريد الحرب ، ويقول : لاتدعوني قريش اليوم الى خطة يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها . فلما جاءه سهيل بن عمرو مفوضا من قريش لعقد هدنة يرجع بها محمد وجيشه عن دخول مكة ، كان من شروط هذه الهدنة شرط ظاهر الغبن ، وهو أن محمدا يسلم الى قريش من لجأ اليه من المسلمين بغير اذن وليه ، و لا يطلب تسليم من لجأ الى قريش من أتباعه .

ذلك الشرط أهاج أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، حتى ان عمر رضى الله عنه كان يذهب تارة الى أبى بكر ، وأخرى الى الرسول ، ويقول : ألسنا المسلمين ! أليسوا المشركين ! ألسنت رسول الله ! فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ فيقول محمد : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ، ويقول أبو بكر : أشهد أنه رسول الله . فقبول المسلمين هذا الشرط هو استسلام منهم لأمر لم يدركوا سره ، وكان ذلك أعظم بلاء وامتحان لصبرهم . وبينما هم على هذه المضاضة ، وقد فرغ الرسول من الجدل مع مفوض قريش « سهيل بن عمرو » ، ولم يكتب العقد ، ولم يمض ، جاءهم أبو جندل مستصرخا يرسف في قيوده .

وأبو جندل هذا هو ابن سهيل بن عمرو نفسه ، وقد انقلت الى المسلمين من أيدي المشركين ، فلما رأى سهيل ابنه قام اليه ، وأخذ بتلايبه ،

وقال : يامحمد ، قد لجت القضية بينى وبينك ( أى فرغنا من المناقشة ) قبل أن يأتيك هذا . قال محمد : صدقت . وأبو جندل ينادى : يا معشر المسلمين ، أأرد الى المشركين يفتنوننى فى دينى ؟

تصوروا ذلك المقام ، مقام محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو الشجاع الذى حدثتكم عن شجاعته المقطوعة النظير ، وهو القوى الذى خرج من المدينة زاحفا بجيش سمعتم الآن وصف عروة بن مسعود له ، تصوره وهو يرى أقرب أصحابه يكاد ينجح الى العصيان ، ثم تصوروا لاجئا يرسف فى القيود ، وهو من أبناء الأغزة فى قريش ، يرسف فيها لمحمد ودين محمد ، ثم انظروا اليه صلى الله عليه وسلم لا يحتال ولا يتردد ، ولما يكتب ، ولما يمش ، يقول لسهيل : صدقت ، لقد لجت القضية ، ويرد صاحبه باكيا الى أعدائه !.

تصوروا كل ذلك ، ثم ليكتب الى من شاء بمثل واحد فى تاريخ البشر كله كهذا المثل ، يضربه محمد فى رعاية الكلمة التى قالها ، ولما تكتب ، ولما تمض .

ذلك هو أعلى الأمثال فى الوفاء بعهد العدو .

بل أرسل الله محمدا بشريعة فى الوفاء ، تجعل حق الميثاق فوق حق الدين ، نفسه ، فقد جعل الدية للمشرك من قوم بينهم وبين المسلمين عهد ، ولم يجعل دية للمسلم من قوم ليس بينهم وبين المسلمين عهد . وكذلك حرم نصره المسلم للمسلم على من بيدهم ميثاق المسلمين من أهل الملل الأخرى ، فقد جاء فى القرآن : « وان استنصروكم فى الدين فعليكم النصر الا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » . ذلك هو التقديس للعقود والمواثيق ، الذى يبقى أبدا الدهر فيه الهدى للناس جميعا . هذا وفأؤه لأعدائه اذا عاهدهم . والآن انظروا معى الى وفائه لعدو قد قتل فى حربه :

كان مطعم بن عدى من أشراف قريش ، وكان رسول الله حين رجع من الطائف ، ولقى من ثقيف منكر القول والفعل ، طلب جوار بعض رؤساء

مكة ، ليدخلها آمنا على حياته ، فأبوا ، وقبل مطعم أن يدخلها في حمايته ، فلما كانت وقعة « بدر » بعد ذلك ، ودارت الدائرة على قريش ، وقتل نفر من صناديدها ، كان بين القتلى مطعم بن عدي ، فقال فيه حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله :

أيا عين فابكى سيد القوم واسفحى	بدمع ، وان أنزفته فاسكبي الدما
وبكى عظيم المشعرين كليهما	على الناس معروف له ما تكتما
فلو كان مجد يخلد الدهر واحدا	من الناس أبقى مجده اليوم مطعما
أجرت رسول الله منهم فأصبحوا	عبيدك ما لبي مهل وأحرما
فلو سئلت عنه معد بأسرها	وقحطان أو باقى بقية جرهما
لقالوا هو الموفى بجيرة جاره	وذمته يوما اذا ما تدمما
فما تطلع الشمس المنيرة فوقهم	على مثله فيهم أعز وأعظما

ذلكم رثاء حسان لرجل من المشركين ، مات يحارب محمدا وصحبه ، يستمع اليه صاحب الدعوة ، ويسره أن يرى المسلمين يرددونه .  
 رأيتم وفاء كهذا وسعة صدر ؟ رأيتم بطل الأبطال يسمو الى أعلى ما تصل اليه الرجولة والانسانية الكاملة ، فيبكي المروءة في عدو هو أحد صرعاة في القتال ؟ ذلكم هو الوفاء الذى علا فوق كل شيء .

ثم انظروا الى وفائه للمشركين أيضا : كان بين شروط هدنة الحديبية أن من شاء دخل في عقد محمد وعهده ، ومن شاء دخل في عقد قريش وعهدها ، فدخلت خزاعة على شركها في عهد محمد . فلما نقضت قريش عهدها معه ، ونصرت حليفها بكرا عليها : ذهب عمرو بن سالم الخزاعى يطالب بالعهد ، ويطلب نصر حلفائه ، فوقف على رسول الله ، وهو في المسجد ينشده ويقول :

يارب انى ناشد محمدا	حلف أيينا وأبيه الأتلا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا	وادع عباد الله يأتوا مددا
فى فيلق كالبحر يجرى مزبدا	ان قريشا أخلفوك الموعدا

✽ وتقضوا ميثاقك المؤكدا ✽



فكان ذلك الاعتداء على المشركين من حلفاء المسلمين ، سببا في الاتجاه الى فتح مكة ، فأسرع رسول الله بالتجهز والزحف عليها .

هذه أمثلة سقناها من وفاء بطل الاسلام صلى الله عليه وسلم لأعداء الملة ، وقد عاهدهم ، أو ذكر لهم صنيعا ، أو قبل محالفتهم على غيرهم .

ووفاءؤه لأصدقائه هو الذى نستنفذ فيه القراطيس ولا ننتهى ، فحياته منذ الصبا هى البر والوفاء .

يقول عبد الله بن أبى الحياء : بايعت (١) محمدا ، ووعدته أن آتيه في مكانه ، فنسيت ، فذكرته بعد ثلاثة أيام ، فاذا هو في مكانه ، فلما رأيته لم يزد على أن قال : لقد شققت على ، أنا هنا منذ ثلاثة أيام أنتظرك ، وكان ذلك في الجاهلية قبل أن يبعث محمد .

وروت عائشة : أن عجوزا جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال لها : من أنت ؟ فقالت : جثامة المزنية ، فقال : أنت حسانة ؟ كيف أنتم ؟ كيف حالكم ؟ كيف كنتم بعدنا ؟ قالت : بخير ، بأبى أنت وأمى . فلما خرجت قلت : يارسول الله تقبل على هذه العجوز هذا الاقبال ! قال : انها كانت تأتينا زمن خديجة ، وإن حسن العهد من الايمان .

وبعد وقعة حنين ، وفيها كادت هوازن تقضى على الاسلام لولا ثباته صلى الله عليه وسلم ، جاءه وفد منها ، وهى الباغية المستكبرة ، تطلب العفو عن أسراها ، فماذا وجدت لتحرك به رحمته ، وتستثير شفقتة ؟ لا شيء ، فليس أشد سوادا من ماضيها معه ، ولكنها وجدت في وفائه ملجأها ومنتهاها ، فقال رجل منهم : يامحمد ، ان في الحظائر مرضعاتك وحواضنك ، ولو أنا ملحننا (٢) للنعمان بن المنذر ، أو الحارث بن أبى شمر الغساني ، ثم نزل منا مثل الذى نزلت ، رجونا عطفه وعائدته علينا . فقال عليه السلام : أما

(١) بايعت : أى بعث له شيئا .

(٢) أى أرفعنا .

ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله . وبذلك رد على هوازن آلاف الأسرى . تلك هى النفس الوفية ، التى تكرم أمة ظالمة مغلوبة وفاء للبن الذى رضعته فيها ، فهل للناس وقد عفا فيهم أثر المعروف أن يتذكروا ؟

ثم اليكم هذه الحادثة ، فقلبوا تاريخ القادة فى العالم أحياء وأمواتا ، ثم اذكروا محمدا وصلوا عليه :

كان يتجهز فى المدينة لفتح مكة ، وكان يخفى أمره ، حتى على أبى بكر وعائشة ، فلما أعلن العزم ، سارع حاطب بن أبى بلتعة الى امرأة استأجرها ، وكتب لها كتابا الى قريش ، وضعته فى شعرها ، وفتلت عليه قرونها ، فعلم رسول الله ، وأخذت المرأة فى الطريق ، فلما سأل حاطبا ما حمله على فعله ؟ قال : يارسول الله ، أما والله انى لمؤمن ، ما غيرت ولا بدلت ، ولكنى كنت امرأ ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، وكان لى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليهم . فقال عمر بن الخطاب : يارسول الله ، دعنى فلاضرب عنقه ، فان الرجل قد نافق ! فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع على أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ! فأنزل الله فى حاطب : « ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالموودة » .

تأملوا فى هذا ، ان وفاء محمد لأصحابه الذين نصره الله بهم فى بدر ، جعله يرجو أن يكون الله قد غفر لحاطب حتى هذه الفعلة .

ثم كان رسول الله فى مرض الموت ، فلما اشتد به خرج الى أصحابه ، فصعد المنبر ، وقال : يامعشر المهاجرين ، استوصوا بالأنصار خيرا ، فان الناس يزدون ، وان الأنصار على هيئتها لاتزيد ، وانهم كانوا عييتى التى أويت اليها ، فأحسنوا الى محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئتهم .

ثم انظروا أخيرا الى مقام الوفاء من نفسه ، وهو يقول يوم أحد حين  
أمر بدفن القتلى : انظروا الى عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن  
حرام ، فانهما كانا متصافيين في الدنيا ، فاجعلوهما في قبر واحد .  
ذلكم هو الوفاء الذى نحن فى أشد الحاجة اليه ، ولن يستقيم أمر  
العالم حتى يتذوقه الناس ، وحتى يؤمنوا به ايمان محمد وأصحابه .



## زهد و قناعة

زهد وقناعته صلى الله عليه وسلم ، قد ضرب فيهما المثل الأعلى للناس جميعا ، للرعى والرعية ، والأفراد والجماعات . انظروا الى العالم الذى نعيش فيه ، فانه يشكو الجشع الذى أصاب أهله ، فلا الغنى قانع بآلافه وملايينه ، ولا الفقير راض بالكفاف من العيش ، فالمالكون لأعنة المال يصرفونه فى شئون الهوى ، والأجراء كذلك يتطلعون الى المال من أجل الهوى . ليس المسيطرون أقل رغبة فى اللهو ممن هم دونهم ، فقد تساوى الأمير والحقير ، وجعلوا هدف الحياة وغايتها شهوات النفس ، ومتاع العيش .

انظروا يمينا ويسارا فى كل البيئات ، بل فى العالم أجمع ، هل ترون الا خلقا قد انطلقوا للدرهم والدينار ، لا يلوون على شئ ، وانصرفوا لعبادة المال ، فملك قلوبهم ومشاعرهم ، وأصبح رفيقهم فى حركتهم وسكونهم ؟

وهل ترون الا صراعا بين أمم اتخذت حب المال والغلب عليه غايتها ، فهو لها الأول والآخر ، والظاهر والباطن ؟ وهل ترون الا طبقات من الأمم تتطاحن ، ليس لها مطلب الا السبق الى المتاع ، واختطاف بعضها ما فى أيدي البعض ؟ وهل ترون الا أفرادا من فاز منهم بالغنيمة تنحى بها جانبا ، وأرخت لهواه العنان ، فى قصور مشيدة ، وجنان ، ومراكب ، ومواكب ، ومتاع ، وغرور ، والناس ينظرون اليهم مع الحسد والاعجاب ، لا يسألون أنفسهم شيئا عن أصل هذا أو مضيره ؟

تلك الأمم والطبقات والأفراد في صراعها على مواد الحياة قد هوت الى الحيوانية ، ليسوا فيها الا كالقطيع يتزاحم ويتطارد ، ليحظى بالعشب ، أو الكلاب تتهارش وتتخاطف العظام .

هوى الانسان في سبيل المال والهوى الى الدرك الذي جاء الأنبياء والرسول جميعا ليرفعوه عنه ، ويوجهوه وجهة أسمى من المحسبات ، وجهة معنوية مقتصدة في رغبات البدن الزائل ، متطلعة الى مطالب الروح الخالدة

جاء بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، والناس على مثل هذه الحال لا يعرفون فضلا الا للأموال والأحساب ، ولا يدركون من لذة التقوى ومتاع الروح شيئا ، فضرب مثلا من نفسه في القناعة والزهد واحتقار الدنيا ، صرف الناس عما هم فيه ، وأخرج الصحابة الزهاد الذين جعلوا للحياة الروحية المقام الأول ، فاتخذوا الدنيا مطية الى ما هو أسمى منها .

ضرب محمد عليه السلام المثل من نفسه ، في فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، ضربه وهو محاصر مع أهله في الشعب ، وضربه وهو ملتجئ الى المدينة ، وهو يقيم دولة الاسلام فيها ، وبعد أن أقامها ، وبعد أن ملك الأموال والرقاب في جزيرة العرب كلها ، فكان يهب هبات الملوك فيعطى الغنى ، ويرجع الى داره وفراشه فيها الحصير وطعامه خبز الشعير .

قال ابن مسعود : دخلت على رسول الله وقد قام على حصير ، وقد أثر في جنبه ، فقلت : يا رسول الله ، لو اتخذنا لك وطاء تجعله بينك وبين الحصير ، يقيك منه ؟ فقال : مالي وللدنيا ! ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .

وعن قتادة بن النعمان قال : قال رسول الله : اذا أحب الله عبدا حماه من الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء .

تلك نظرة بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم الى الحياة الحسية ، تلك النظرة السامية التي اخترقت حجب هذه الدنيا ، فلما كثر أتباعه ، وانتشر

دينه ، فتحت القلوب الى ما هو أوسع من البطن والفم والأنف ، وسمت النفس الانسانية فوق تلك الحجب ، فتجلى لها النور الالهي ، واتسع الأفق ، وأضاءت الأرواح العلية هذا الوجود ، فشهد العالم دولة الصدر الأول للإسلام ، فيها المثل الكامل للزهد والقناعة والعدل والمساواة والمعروف وطيب العيش ، فيها مثل أبى بكر وعمر وهما فى أثواب مرقعة ، يحسدهما كسرى وقيصر .

وهل كان عمر فى الثوب المرقع على الأرض أقل متاعا بالحياة من المترفين الجبابرة ؟ كلا ، انما هو نوع آخر من اللذات ، أبعد من الحيوانية ، وأدنى الى الانسانية ، ذلك هو متاع الروح التى فرت الى الله ، والى أسمى الحياة الوجدانية ، وذلك أبعد أثرا فى النفس ، وأحسن عاقبة للأبدان ، وأحب الى وجودنا البشرى .

تلك المدرسة المحمدية مدرسة القناعة والزهد ، أخرجت ولاية وحكاما للشعوب ، يقنعون بدرهم فى اليوم أجرا ، ويقيمون الولاية والملك على أحسن ما يرضى الله والناس .

يروى ابن هشام عن زيد بن أسلم : لما استعمل رسول الله عتاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام وخطب الناس ، فقال أيها الناس أجاج الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله درهما كل يوم ، فليست لى حاجة الى أحد .

هل ترون خلال هذه الخطبة الا رجلا فرحا برزقه ، قد ضمن العيش بدرهم ويريد أن يفرغ الى ما هو فوق العيش ! هذه هى القناعة ، التى تلقاها الصحابة من المعلم الأكبر .

انظروا الى محمد نفسه ، خرج مرة من المسجد ، فوجد أبا بكر وعمر ، فسألهما عن خروجهما ، فقالا : أخرجنا الجوع ، قال : وما أخرجنى الا الجوع ، فذهبوا الى أبى الهيثم ، فأمر لهم بشعير ، وقام الى شاة فذبجها ،

واستعذب لهم ماء معلقا عنده في نخلة ، ثم أتوا بالطعام ، فأكلوا وشربوا من ذلك الماء ، فقال عليه الصلاة والسلام : لنسألن عن نعيم هذا اليوم !  
كان النبي معروفا بفرط الحب لأولاده ، حتى ان فاطمة بنته كانت اذا دخلت عليه قام اليها وقبلها ، وأجلسها مكانه ، ومع ذلك كانت تعيش عيشة الفقراء ، وتشكو من آلام الرحي ، وتجرح يدها أحيانا من حمل الماء ، فطلبت اليه يوما خادما من الأسرى فأبى .

وروى أنه قال لعلي : كيف تطمعون في شيء من هذا ، وأهل الصفة على ما هم عليه من الفقر ! ودخل على فاطمة وفي يدها سلسلة من ذهب ، وهي تقول لامرأة عندها : هذه أهداها أبو الحسن ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا فاطمة ، أيسرك أن يقول الناس ابنة رسول الله في يدها سلسلة من نار ؟ ثم خرج ولم يقعد فأرسلت فاطمة بالسلسلة فباعتها ، واشترت بشمها عبدا ، فأعتقته ، فحدث رسول الله بذلك فقال : الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار .

ذلك هو الزهد الذي علمه بطل الأبطال أهل بيته وصحبه والناس جميعا . وان فاطمة ، وقد باعت السلسلة ، وأعتقت العبد ، قد تمتعت ولا ريب بلذة وجدانية ، وطمأنينة نفسية ، أبعد أثر في تشييد بيت السعادة ، من تلك السلسلة من الذهب في عنقها ، تفخر بها على صاحباتها .

روى البخاري عن عائشة أنها قالت لعروة : يا بن أختي ، ان كنا لننظر الى الهلال ثم الهلال ، ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقدت في أبيات رسول الله صلى الله عليه وسلم نار .. فقلت : يا خالة ، ما كان عيشكم ؟ قالت : الأسودان : التمر والماء ، الا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار كانت لهم منافع (١) ، وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانها فيسقيننا .  
وقد ذكر مرة وهو في الصلاة : أن في بيته تبرا ، فخفف الصلاة ، وسارع الى التبر ، ففرقه على الفقراء ، كراهة أن يبيت الذهب في بيته .

(١) المنافع جمع منيعة ، وهي الشاة تعار لينتفع بها .



قال عقبة بن الحارث : صلى بنا رسول الله العصر فأسرع وأقبل يشق الناس من سرعتة ، ودخل الى بيته ، ثم لم يكن بأوشك من أن خرج ، فقال : ذكرت شيئاً من تبر كان عندي ، فخشيت أن يجسني فقسمته . هذا الذي يقسم التبر بين الناس هو الذي تقول عائشة أيضاً عن حال أهله : ما شبع آل محمد من خبز البر ثلاثاً ، حتى قضى لسبيله ، وما أكل آل محمد أكلتين في يوم واحد الا احدهما تمر . ويقول أنس : قال رسول الله : لقد خفت في الله مالم يخف أحد ، وأوذيت في الله مالم يؤذ أحد ، ولقد أتى على ثلاثون ما بين يوم وليلة ، وما لى ولبلال من الطعام الا شيء يواريه ابط بلال (١) .

وهاكم أمثلة من ماثور قوله في القناعة والزهد ، وما كان قوله الا مطابقاً لعمله ، فما عرف عن بطل الأبطال حديث الا كان صورة لنفسه الكريمة ، معبرا عما رضى لها من خلق وما هو عليه من فطرة .

والذين يقرءون بامعان سيرته الكريمة ، يرون مطابقة أقواله أفعاله في كل أطوار الحياة مطابقة تامة ، فلم يكن يخشى الفقر أكثر مما يخشى الثروة والغنى ، وكان يكره الكنز ، ويقول : انه لم يترك في بيته ثلاثة دنانير يضم اليها ديناراً آخر ، الا لقضاء دين ، وكان يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد كفافاً وقيل قوتا ( أى لا يزيد على الحاجة ) .

وعن أبى أمامة الأنصارى قال : ذكروا عند النبى الدنيا ، فقال : ألا تسمعون ، ألا تسمعون ؟ ان البذاذة من الايمان ، ان البذاذة من الايمان ( أى التواضع في اللباس ، وترك الزينة ) .

وقال على : بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ طلع علينا مصعب بن عمير ، ما عليه الا بردة مرقعة بفرو ، فلما رآه صلى الله عليه وسلم بكى للذى كان فيه مصعب من النعمة ، ثم قال : كيف بكم اذا غدا أحدكم في حلة ، وراح في أخرى ، ووضعت بين يديه صحيفة ، ورفعت

---

(١) يريد شيئاً يسيراً يضعه حامله تحت جناحه فلا يظهر .

أخرى ، وسترتم بيوتكم كما تستر الكعبة ؟ قالوا : يارسول الله نحن يومئذ خير منا اليوم ، نكفى المؤنة ، وتنفرد للعبادة ، فقال : بل أنتم خير منكم يومئذ .

وكان صلى الله عليه وسلم يحب الى الناس صحبة الفقراء ، حتى تنصرف آمالهم عن التطلع الى الترف والزينة . يقول عون بن عبد الله بن عتبة : كنت أصحاب الأغنياء ، فما كان أحد أكثرهما منى ، كنت أرى دابة خيرا من دابتي ، وثوبا خيرا من ثوبي ، فلما سمعت قول رسول الله : اذا نظر أحدكم الى من فضل عليه في المال والخلق ، فلي نظر الى من هو أسفل منه ، فذلك أجدر ألا تزددوا نعمة الله عليكم . قال ، لما سمعت ذلك صحبت الفقراء فاسترحت .

لا بد أن يخطر لكم هنا هذا السؤال : ما الحد بين الغنى والفقير في نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ونظر أصحابه ؟ وانا محاولون أن نصوره لكم كما صورته كتب الحديث .

قال صلى الله عليه وسلم : من أصبح آمنا في سربه ، معافى في بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذاقيرها . وروى عثمان عنه أنه قال : ليس لابن آدم حق في سوى هذه الخصال : بيت يسكنه ، وثوب يوارى عورته ، وجلف (١) الخبز والماء . وسأل رجل عبد الله بن عمرو بن العاص ، فقال ألسنا من فقراء المهاجرين ؟ فقال له : ألك زوجة تأوى اليها ؟ قال نعم ، قال : ألك مسكن تسكنه ؟ قال : نعم ، قال : فأنت من الأغنياء ، قال : فان لى خادما ، قال : فأنت من الملوك .

ولقد سأله أصحابه : ما الغنى الذى لا ينبغي معه المسألة ؟ قال : قدر ما يغديه ، أو يعشيه .

---

(١) جلف الخبز : الغليظ اليابس ، يؤكل بغير ادمام .

لذلك كان رسول الله يكره من الناس السؤال ، ويقول : لو تعلمون ما في المسألة ما مشى أحد الى أحد يسأله شيئا ، وكان يترفع بأنصاره عن ذل السؤال .

أتى اليه رجل من الأنصار يسأله ، فقال : أما في بيتك شيء ؟ قال : بلى ، جلس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نترب فيه الماء . فقال : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما صلى الله عليه وسلم بيده ، وقال : من يشتري هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . قال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا ، قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين ، فأعطاهما الرجل ، وقال : اشتر بأحدهما طعاما فانبذه الى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به ، فأتاه به ، فتد فيه رسول الله عودا بيده ، وقال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يوما ، ففعل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشتر ببعضها ثوبا ، وبعضها طعاما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة .

كان بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم مثال الرجولة ، يحب النظافة والطيب ، ويبغض الخيلاء والتظاهر ، وما يقصد به الى الترف . قال على : أخذ رسول الله حريرا فجعله في يمينه ، وذهبا فجعله في شماله ، فقال ان هذين حرام على ذكور امتى .

ورأى عمر مرة حلة من استبرق تباع ، فأتى بها النبي ، فقال : يارسول الله ابتع هذه ، فتجمل بها للعيد والوفود ، فقال رسول الله : انما هذه لباس من لاخلاق له .

كان سيد العرب ، ومالك الجزيرة يملأ بالأموال صحن المسجد ، فيقسمها على الناس الى آخر درهم ، فاذا دخل الى بيته نام على جلد محشو بليف ، قالت عائشة : كان فراشه من آدم حشوه ليف .

وتقول عائشة : انه كان لرسول الله حصير يحتجزه في الليل ، فيصلى فيه ، ويبسطه في النهار ، فيجلس عليه وكان في طعامه قانعا زاهدا يقول : « حسب ابن آدم لقيمات يقمن أوده (١) » .  
يقول أنس خادمه : ما علمت النبي خبز له مرقق قط ، ولا أكل على خوان قط .

وسئل سهيل بن سعد : هل أكل النبي النقي (٢) ؟ فقال ما رأى النبي النقي منذ ابتعثه الله حتى قبضه .

ولم يقصد رسول الله بهذا الزهد اضاءة المال ، ولا تحريم ما أحل الله لعباده من الزينة والمتاع ، فقد عرف الزهد بهذا المعنى السامي في قوله : ليست الزهادة في الدنيا بتحريم الحلال ، ولا اضاءة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله تعالى أوثق منك بما في يدك ، وأن تكون في ثواب المصيبة اذا أصبت بها ، أرغب منك فيها ، لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » .

وكان يجب النظافة والطيب والهيئة الحسنة ، ويحرص عليها . قال عطاء بن يسار : أتى رجل النبي ثائر الرأس واللحية ، فأشار اليه كأنه يأمره باصلاح شعره ففعل ، ثم رجع فقال النبي : « أليس هذا خيرا من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان » ! ورأى رجلا عليه ثياب وسخة ، فقال : « أما كان هذا يجد ما يغسل ثوبه ؟ » وجاءته هند بنت عتبة تريد أن تبايعه ، فقال : « لا أباعك حتى تغيري كفيك .. كأنهما كفا سبع » . يريد أن تصلح أظفارها ، وتغير كفها بالحناء .

وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « ان الله طيب يحب الطيب ، نظيف يحب النظافة ، كريم يحب الكريم ، جواد يحب الجواد ، فنظفوا أفنيكم ، ولا تشبهوا باليهود » .

(١) الأود : الاعوجاج .

(٢) خبز الدقيق الخالص .

فرسول الله في زهده وقناعته انما كان يكره الخيلاء والاسراف والترف ، ويجب للمسلم أن يرضى بالكفاف ، وأن يكون جوادا نظيفا .

كان بطل الأبطال في زهده وقناعته مثلا كاملا ، صور لنا كيف يتأني للرجل أن يعيش كريما ، يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه ، فينفقها جميعا ، وينام بعد ذلك على حصير يؤثر في جنبه ، فاذا أرادوا أن يتخذوا له وطاء قال : « ما أنا والدينا الا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها » .

ذكر وهو في مرض موته أن في بيته سبعة دنانير ، فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، فנסوا لاشتغالهم بمرضه ، وأفاق يوم الأحد الذي سبق وفاته ، فسأل عائشة ما فعلت بالسبعة الدنانير ؟ فأجابت انها لا تزال عندها ، فطلبها ووضعها في كفه ، ثم قال : « ما ظن محمد بربه لو لقي الله وعنده هذه ! » ثم تصدق بها على الفقراء ، وقد لقي الله في كساء ملبد ، وازار غليظ ، هو لباسه الذي قضى فيه ، ولكنه ترك وراءه نورا يشع من جبين القناعة والزهد ، يهدي البشر الى الحياة الطيبة ، ويوجههم الى ما هو أسمى من متاع الأبدان الزائلة ، الى متاع الأرواح الخالدة ، ولا يزال رسول الله في قناعته وزهده قدوة الأبطال والناس جميعا ، يتطلعون الى منتهى قصده ، فلا يدركون منه الا قليلا .



## تواضعه و تياسره

صفة بينة لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، كانت ولا تزال على مر الأجيال بادية واضحة في طبعه الكريم ، تلك هي : التياسر والتواضع ، فهما كان محمد صورة صادقة لكرامة الانسان ، يؤتاها من صميم نفسه ، ولا يصطنعها مما يحيط به من مظاهر خادعة متكلفة .

كان محمد التياسر نفسه يتمثل في الرجل الكامل ، ويبعث من أعماق قلبه ، فيددم ما يتجمع حوله من زخرف السيادة والملك ، وما يتبعهما من الرياء والزينة ، وما يخدع به الناس من قول أو فعل كان محمد قريبا هينا سهلا ، يلقي أبعد الناس وأقربهم ، وأصحابه وأعداءه ، وأهل بيته ووفود الملوك بلا تصنع ولا تكلف ، بل بالحق سافرا .

فكانت أعماله تصدر طبيعية ، كل منها يدل على خلقه ، كما تدل الصورة على صاحبها .

واسمعوا الى عدى بن حاتم الطائى يروى قصته ، وقد قدم اليه من الشام ، بعد أن فتحت جيوش المسلمين بلاده ، وبعد أن فر الى الروم هاربا . يقول ، وقد كان يظن أنه سيلقى ملكا فى المدينة : دخلت على محمد وهو فى المسجد فسلمت عليه ، فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم . فقام وانطلق بى الى بيته ، فوالله انه لعامد بى اليه ، اذ لقيته امرأة ضعيفة كبيرة ، فاستوقفته فوقف طويلا تكلمه فى حاجتها ، قال : فقلت : والله ما هذا بملك . قال : ثم مضى بى رسول الله حتى اذا دخل بى بيته ، تناول وسادة من آدم محشوة ليفا ، ففذفها الى ، فقال : اجلس على هذه ، قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت . فجلست عليها ، وجلس رسول الله على

الأرض ، قال : قلت فى نفسى : والله ما هذا بأمر ملك . ثم قال : ايه ياعدى ابن حاتم ، ألم تك ركوسيا ( دين بين النصرانية والصابئية ) . قال : قلت : بلى ، قال : أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ قال : قلت : بلى ، قال : فان ذلك لم يكن يحل لك فى دينك . قال : قلت أجل والله ، وعرفت أنه نبي مرسل ، يعلم ما يجهل . ثم قال : لعلك ياعدى انما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بغيرها تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك انما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وإيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . قال : فأسلمت .

ولقد عاش عدى حتى رأى القادسية والقصور البابلية مفتحة للعرب . هذه طبيعة محمد لا طلاء عليها ، يأتيه عدى وقد وقع بعض أهله قبل ذلك أسرى لجيوشه ، يأتيه مغلوبا فيجلسه على وسادة : ويجلس هو على الأرض ، ويحدثه بلا كلفة عما كان ، وما يعتقد كائنا . ثم انظروا اليه وقد مات ابنه ابراهيم ، فكسفت الشمس ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم ، فيقوم فى المسجد يقول : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تنكسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رأيتم ذلك فادعوا الله وصلوا وتصدقوا » .

هذه هى النفس البريئة التى تعشق الحق للحق ، وتتعالى فى تواضع عن استغلال وهم من الأوهام ، أو مصادفة من المصادفات ، بل تأبى السكوت على سخف أو ضلال ، ولو كان من شأنه أن ييهر العامة .

وهاكم ما يروى جابر بن عبد الله عما وقع له ، قال : كان بالمدينة يهودى وكان يسلفنى فى ترمى الى الجذاذ (١) فخاست ( أى تأخر ثمرها ) عاما ،

(١) الجذاذ : قطع النمر .



فجاءني اليهودي عند الجذاذ ، ولم أجد شيئا ، فجعلت استنظره الى قابل ،  
 فيأبى ، فأخبر بذلك النبي ، فقال لأصحابه امشوا نستنظر لجابر من اليهودي ،  
 فجاءوني في نخلي ، فجعل النبي يكلم اليهودي فيقول : أبا القاسم ، لأنظره ،  
 فقام النبي فطاف في النخل ، ثم جاءه فكلمه فأبى ، ففقت فجئت بقليل من  
 رطب ، فوضعت بين يدي النبي ، فأكل ثم قال : أين عريشك يا جابر ؟  
 فأخبرته ، فقال : افرش لي فيه ، ففرشته ، فدخل فرقد ، ثم استيقظ ، ثم  
 جئته بقبضة أخرى فأكل منها ، ثم قام فكلم اليهودي ، فأبى عليه فقال :  
 يا جابر ، جذ واقض ، ( أى اقطع التمر ، واقض دينك ) . ويقول جابر : ان  
 الله بارك فيه ففضى الدين وزاد .

والحكاية تصور لنا تياسره وتواضعه في سعيه بين اليهودي وجابر ،  
 وأكله ونومه ، ولين جانبه ، فلم يزد بعد أن يئس من اليهودي على أن يأمر  
 صاحبه بأداء ماعليه .

انظروا كذلك اليه كيف يستأذن على أحد أصحابه ، وكيف ينصرف ؟  
 يقول قيس بن سعد : زارنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في منزلنا ،  
 فقال : السلام عليكم ورحمة الله . فرد أبي ردا خفيا . فقلت لأبى : ألا تأذن  
 لرسول الله فقال : ذره حتى يكثر علينا من السلام ، فقال صلى الله عليه وسلم :  
 السلام عليكم ورحمة الله ، ثم رجع فأتبعه سعد ، فقال يارسول الله : انى كنت  
 أسمع تسليمك وأرد عليه ردا خفيا ، لتكثر علينا من السلام . فانصرف معه  
 النبي ، وأمر له سعد بغسل فاغتسل ، ثم ناوله ملحفة مصبوغة بزغفران ،  
 فاشتمل بها ، ثم رفع يديه ، وهو يقول : اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على  
 آل سعد . فلما أراد الانصراف قرب له سعد حمارا ، فقال سعد . يا قيس  
 اصحب رسول الله ، فصحبته ، فقال : اركب معى ، فأبيت ، فقال : اما أن  
 تركب ، واما أن تنصرف ، فانصرفت .

هذه زيارة سيد العرب والعجم لأحد أنصاره من كبار المدينة ، تمر في  
 غير حفل ، ولا ظهور ، يذهب اليه ماشيا ، ويعود على حمار ، يريد أن يردف

عليه رفيقته تلك السجية الطاهرة لم تحل دون أن يكون أمر محمد مطاعا ، وطاعته قربة ، فان يحسب الناس أن مظاهر الرياسة والسلطان لازمة لحسن الولاء ، واستدامة الطاعة ، فلقد كان ولاء سعد والأنصار لمحمد المتواضع مضرب الأمثال في تاريخ الدعوة الاسلامية .

ولم تكن دعوته قيسا الى الركوب معه على الحمار أمرا غريبا ، بل كانت هذه عادته يردف على حماره وبغلته وناقته ، ويعاقب (١) مع رفاقه . قال ابن عباس : ان النبي لما قدم مكة استقبله أغيلة بنى عبد المطلب ، فحمل واحدا بين يديه ، وآخر خلفه . وقال معاذ : كنت ردف رسول الله على حمار يقال له غفير . وجاء اليه رجل ، وهو يمشى ، فقال : اركب وتأخر على حماره ، فقال محمد : أنت أحق بصدر دابتك منى ، الا أن تجعله لى ، فقال الرجل : فاني جعلته لك . ويقول جابر : كان رسول الله يتخلف فى السير ، فيزجى الضعيف ( أى يسوقه ليلحق الرفاق ) ويردف ، ويدعو لهم . ولم يكن أبغض اليه صلى الله عليه وسلم من الكبر والخيلاء ، فقد قال : « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال ذرة من كبر » فقال رجل : ان الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : ان الله يحب الجمال : الكبر بظر الحق ، وغمص الناس » . وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « ليستنهين أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا ، ان الله أذهب عنكم عيبة الجاهلية ( أى كبرها ) انما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، الناس كلهم بنو آدم ، وآدم خلق من تراب » .

هذا الحديث ينم بمعناه وعبارته على مقدار غضب محمد اذا ذكر الكبر والمتكبرون ، ولو كان للناس أن يفخروا بأبائهم لما كان فى جزيرة العرب أحق بالفخر من محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ، ولكن محمدا لا يرى فى المجتمع الذى أقامه الا هيئة تتساوى فيها الحرف ، والمراتب ، والأعمال والأحساب ، والأنساب ، ولا تفاضل عنده الا بالعمل الصالح يرفع صاحبه .

(١) المعاقبة أن يركب واحد مرة ، ويركب الثانى أخرى .

كان مرة في سفر مع صحبه ، فأرادوا أن يهيئوا لهم طعاما ، فقسموا العمل بينهم ، فقام يجمع الحطب ، فأرادوا أن يكفوه ذلك فأبى لأن الله يبغض الرجل يتعالى على رفاقه . ولما وقف عليه اعرابى يرتجف خشية زجره وذكره أنه ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد (١) . وخرج على جماعة من أصحابه يتوكأ على عصا ، فقاموا له ، فقال : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا ، وكان يرى كذلك فى تقبيل اليد تشبها بالأعاجم ، وينهى عنه .

وكان محمد يكره الاطراء والألقاب : انطلق اليه وفد بنى عامر ، فلما كانوا عنده ، قالوا : أنت سيدنا ، فقال السيد الله ، فقالوا : وأفضلنا فضلا وأعظمنا طولا فقال : قولوا قولكم ، ولا يستجرينكم الشيطان . ويقول أبو بكر رضى الله عنه . أثنى رجل على رجل عند النبى ، فقال : ويلك ! قطعت عنق صاحبك ، أى أهلكته بالاطراء والمدح والتعظيم ، فانه يعجب بذلك فيهلك ، كأنه قطع عنقه . ويقول أبو هريرة أمرنا الرسول أن نحشو فى آفواه المداحين التراب .

وكان محمد صلى الله عليه وسلم يكره كذلك الخيلاء والتفاصيح والتأثير فى الناس بالقول المزخرف ، ويقول : ان من أحبك الى ، وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقا ، وان أبغضكم الى ، وأبعدكم منى يوم القيامة ، الشرثارون والمتشدقون والمتفيهقون . قالوا يارسول الله . وما المتفيهقون ؟ قال المتكبرون . والشرثارون هم الذين يكثرون الكلام تكلفا ، والمتشدقون هم الذين يتكلمون بملء أفواههم تفاصحا وتعاطيا . وكان يكره الخطيب يسلب بفصاحته ألباب الناس ، ويملك حواسهم ، قال صلى الله عليه وسلم : من تعلم صرف الكلام ليستبى به قلوب الرجال ، لم يقبل الله منه يوم القيامة صرفا ولا عدلا . وكان يقول : هلك المنتطعون ويكررها . بغضا منه فى التعمق والتفاصيح ، كان كل ذلك نفورا بطبعه الميسر المتواضع عن التظاهر والرياء والتكلف .

---

(١) القديد : لحم مملوح يجفف فى الشمس .

كان فى تياسره جم التواضع ، وافر الأدب ، يبدأ الناس بالسلام ، وينصرف بـكله الى محدثه صغيرا أو كبيرا ويكون آخر من يسحب يده اذا صافح ، واذا تصدق وضع الصدقة بيده فى يد المسكين ، واذا أقبل جلس حيث ينتهى المجلس بأصحابه . لم يكن يأنف من عمل يعمل لقضاء حاجته أو حاجة صاحب أو جار ، فكان يذهب الى السوق ، ويحمل بضاعته ، ويقول : أنا أولى بحملها ، ولم يستكبر عن عمل الأجير والفاعل سواء كان فى بناء مسجد المدينة ، أو فى الخندق وهو أمير الجيش يدفع الأحزاب .

وكان محمد كذلك متواضعا فى ملبسه وسكنه ، يلبس كعامة من حوله ، ويسكن وقد واثته الدولة والسلطان — فى صف من حجرات واطئة مبنية باللبن ، بين كل حجرة وأخرى حائط من جريد النخل ، ملبس بالطين ، ومغطى بجلد أو كساء أسود من الشعر .

وكان يجب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ، ويقبل عذر المعتذر ، وكان يرفع ثوبه ويخصف نعله بيده ، ويخدم نفسه ، ويعقل بغيره ، ويأكل مع الخادم ، ويقضى حاجة الضعيف والبائس .

كان هذا التياسر والتواضع الصادق من نفسه الطاهرة ، والذى هو صورة صادقة له ، لم ينقص من هيئته ولا محبته ، وقد قيل فى وصفه : من رآه بداهة هابه ، ومن عاشره أحبه ، فكانت علاقة أصحابه والناس به علاقة أدب جم ، وحب ووقار كامل ، ولم يتكبر ولكنه لم يرض سوء الأدب ، وكثيرا ما بين لأصحابه كيف يتصرفون فى حضرته ، وفى خطابه .

يقول السير وليم موير ، وهو من نقاد محمد الصرخاء ، فى وصف تواضعه وتياسره : « كانت السهولة صورة من حياته كلها ، وكان الذوق والأدب من أظهر صفاته فى معاملته لأقل تابعيه ، فالتواضع ، والشفقة ، والصبر ، والإيثار ، والجود ، صفات ملازمة لشخصه ، وجالبة لمحبة جميع من حوله ، فلم يعرف عنه أنه رفض دعوة أقل الناس شأنا ، ولا هدية مهما

صغرت ، وما كان يتعالى ويبرز في مجلسه ، ولا شعر أحد عنده أنه لا يختصه باقباله وان كان حقيرا .

وكان اذا لقي من يفرح بنجاح أصابه ، أمسك يده ، وشاركه سروره ، وكان مع المصاب والحزين شريكا شديد العطف ، حسن المؤاساة ، وكان في أوقات العسر يقتسم قوته مع الناس ، وهو دائم الاشتغال والتفكير في راحة من حوله وهناءتهم .

ولسنا في تاريخ محمد بحاجة الى أحد ، فان مما اختص به من بين رسل العالم وأبطاله ، وضوح حياته وجلالها من جميع نواحيها ، وانما سقنا عبارة السير موير هنا لشعورنا أنها صادرة عن اعجاب صادق ، ولو أننا درسنا سيرة محمد الدراسة اللاتقة بها ، لكان اليوم حيا في قلوبنا ، كما كان حيا بين أصحابه ، ولوجدنا الصورة التي طبعها على الوجوه بعمله وقوله ، لا تزال واضحة وضوح نفسه العظيمة ، المتحلية بأخلاق لا يغطيها طلاء ، ولا يحجبها رياء ، ولا ترى الا على حالة واحدة في الليل والنهار ، وفي السر والعلانية ، وفي الشدة والرخاء ، وفي الضعف والقوة ، في السوق وهو في شبابه ، وفي الشيخوخة وهو على عرش النبوة والملك . وكان محمد بأخلاقه شخصية من اليسر والتواضع لا تبديل ولا تغيير فيها ، هي النفس التي اتصلت بالسما ، وعاشت على الأرض ، دانية الى الناس ، محبة اليهم ، ففي كل أطوار حياته كان بطل الأبطال ، صلى الله عليه وسلم ، المثل الذي نحن اليوم أحوج ما نكون اليه ، ذلك المثل الذي قام عليه النظام الاجتماعي الاسلامي ، والذي جعل الناس سواء ، في نطاق الأخوة الاسلامية ، لا يرفع من شأن أحدهم غنى أو جاه ، أو حسب أو نسب ، وانما هو مؤمن تقى ، أو فاجر شقى ، وللناس من آدم ، وآدم من تراب .



## تعبده و نسكه

نسكه وتعبده صلى الله عليه وسلم ، صفة بارزة في طبعه الكريم ، فقد كان يجد في العبادة قرّة عينه ، وطمأنينة نفسه . ولو أنه كان من النساك الذين انقطعوا للرهبانية ، أو المتصوفة الذين انصرفوا عن الدنيا ، لما كان في نسكه وتعبده بدعا ، وانما الذى يلفت نظر الباحث في حياة بطل الأبطال ، هو ذلك الجمع الغريب بين النسك الذى يبلغ أرقى مراتب التعبد ، وبين القيام على أمور الدنيا التى كان يعيش فيها بكده ، ويعمل كثيرا من الأهل والفقراء ، ويناضل أمة بأكملها ، ويسوس دولة فتية في وجه العالم ، يوفد الى الملوك ويدعوهم ، ويستقبل الوفود ويكرمهم ، ويبعث السرايا ويقودها ، ويجادل من حوله من أهل الأديان وأهل السلطان ، ويهيب للنصر ، ويحتاط للهزيمة ، ويبعث العمال ، ويجبى الأموال ويقسمها بنفسه ، ويقول : ان لم أعدل فمن يعدل ؟ ويشرع للناس دين الله فيفصل المجمل من الوحي ، ويوضح الغامض ، ويرسم السنن ، فيخرج من الأصل فروعه ، ويرد ما لم يطلعه الله عليه الى ما أطلعه الله عليه . وهو في كل ذلك يؤدى العمل اليومي الذى ينوء به أبطال هذه الدنيا وبين هذه الهموم والمشاكل يتجلى محمد الناسك العابد بالليل والنهار أعظم انقطاعا الى الله ممن انقطعوا اليه في رءوس الجبال .

ذلك الجمع بين الدين والدنيا يجعل من بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم ، مثلاً قائماً بنفسه في تاريخ البشرية منقطع النظير . كان يقسم يومه جزءاً للعبادة ، وجزءاً للناس وجزءاً لأهله ، فاذا طغى ما للناس انتقص من الوقت الذى هو لأهله ، واحتفظ بما هو لله ، وقد واظب على ذلك مواظبة عجيبة تستحق مزيد الإعجاب من أنصاره وخصومه على السواء .

فقد كان مثلاً من الجد الكامل ، والتوجه الخالص ، اذا انصرف للعبادة انصرف بجملته ، واذا قام بعمل آخر لم يفتر عنه حتى يتمه ، وقد أجمع مؤرخوه من أهل الملل المختلفة على أنه كان يعطى العمل الذى يشغله كل حسه وكل قلبه ، وكان ذلك يتجلى فى علاقته بالناس ، فما حدثه أحد الا التفت اليه بوجهه وجسمه ، وأصغى اليه تمام الاصغاء ، ولم يقطع الحديث حتى يكون المتكلم هو الذى يقطعه .

ذلك الجد الذى يلازم النفوس المؤمنة ، هو سر النجاح فى كل الأعمال ، سواء أكانت للدين أم للدنيا ، وفيه كان بطل الأبطال صورة صادقة منيرة لأصحابه وتلاميذه ، بل ذلك المثل من الجد فى كل شىء هو الذى أنجب ممن صحبه أكبر رجال الدولة ، وسواس الأمم ، فجعل من رعاة الابل والغنم ومن صغار الزراع والتجار خلفاء كسرى وقيصر ، يعلمونهما ما فاتهما من العدل والاحسان .

كان محمد بفطرته يحب النسك والعبادة ، ويجد فيها قرة عينه ، فكان قبل الرسالة ينقطع شهراً فى غار حراء خارج مكة للتعبد .

ألف النسك والعبادة والخلوة طفلاً وهكذا النجباء  
واذا حلت الهداية قلباً نشطت للعبادة الأعضاء

وقد اختلف الأصوليون والفقهاء فى صورة العبادة وطريقتها ، وعلى أية شريعة كان يتعبد ، وهذا الخلاف نفسه يلقي الشك فى تلك الأقوال والفروض ، والثابت تاريخياً هو أن عبادته كانت فكراً فى خالق الكون ، يدور حول الوجود والمشرق عليه ، فلم يعلم عنه أنه كان يرعى سنن العبادات فى الشرائع التى سبقتة ، فقد رفض الأديان كلها قبل أن يهتدى الى الحق فى أمر الخالق ، حتى فى بعض مالزمه من عبادة العرب كالحج ، فإنه لم يلتزم مذهب الحمس ، الذى هو مذهب عشيرته ، بل وقف وأفاض من عرفة كما يقف ويفيض الناس ، وحرّم على نفسه كثيراً مما أحلت قریش فى جاهليتها ، فتبع ما يقره العقل الراجح ، واستمر طالبا الهداية ، باحثاً عن



الحق ، ناسكا في الوصول اليه ، عبادته التفكير والتأمل ، حتى أتاه اليقين .  
 « وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا  
 الايمان » ، ويقول القرآن ممثنا عليه : « ووجدك ضالا فهدى » . فلما  
 جاءه الهدى أخذ يصلى ، فيخرج الى شعاب مكة ، ومعه على وهو صبي ،  
 فيصليان مستخفيين ، حتى اذا أمسيا رجعا .

حلت الهداية قلب محمد ، فتعلق بالله ، وفنيت نفسه في حبه ، وانا  
 لنستطيع أن نقول : انه صار معه في حركته ، وسكونه ، ويقظته ، ونومه ،  
 وبلغ به الفناء في الذات العلية أن صار يقف بين يدي خالقه حتى تتورم  
 قدماه : يقول المغيرة بن شعبة : ان النبي كان يقوم ليصلى حتى تتورم قدماه  
 أو ساقاه ، فيقال له ، فيقول : أفلا أكون عبدا شكورا ! ويقول ابن مسعود ،  
 صليت مع النبي ليلة ، فلم يزل قائما حتى هممت بأمر سوء ، قيل : ما هممت؟  
 قال : هممت أن أقعد وأذر النبي . ويروى عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن  
 النبي قال له : أحب الصلاة الى الله صلاة داود ، وأحب الصيام الى الله  
 صيام داود ، كان ينام نصف الليل ، ويقوم ثلثه ، وينام سدسه ، ويصوم  
 يوما ، ويفطر يوما .

كان قيام الليل ، والتهجد فيه من عادته طول حياته ، صلى الله عليه  
 وسلم ، وكان له فيه نجوى ودعاء ، ما أدله على ضراوته وفنائه في حب  
 الخالق وخشيته ! كان يقول : اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض  
 ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ، ولك  
 الحمد ، أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ،  
 ووعدك الحق ، ولقاؤك الحق ، وقولك الحق ، والجنة حق ، والنار حق ،  
 والنبون حق ، ومحمد حق ، والساعة حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ،  
 وعليك توكلت ، واليك أنبت ، وبك خاصمت ، واليك حاكمت ، فأغفرلى  
 ما قدمت ، وما أخرت ، وما أسررت ، وما أعلنت ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ،  
 لا اله الا أنت ، ولا حول ولا قوة الا بالله . وهاكم القرآن يخاطبه في شأن  
 التهجد : « يأبها المزمل قم الليل الا قليلا ، نصفه أو انقص منه قليلا ، أو

زد عليه ورتل القرآن ترنيلا . انا سنلقى عليك قولاً ثقيلاً . ان ناشئة الليل هي أشد وطناً وأقوم قيلاً » ، فكان يفعل ما أمر به ، وفي ذلك يقول ابن رواحة من شعراء الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم .

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع  
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا به موقنات أن ما قال واقع  
ببيت يجافي جنبه عن فراشه إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

حلت الهداية قلب محمد ، فعلق بالله في كل شيء ، فهو ذاكره ، واثق به ، مراقب له ، مطيع ، خائف ، محب ، خاشع آناء الليل وأطراف النهار ، فإذا جاءه أمر يحبه قال : الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، وإذا أتاه أمر يكرهه قال : الحمد لله على كل حال ، وإن قصد فعل شيء قال : اللهم خر لي واختر لي ، وإن أراد سفراً قال : اللهم بك أصول ، وبك أجول ، وإن أراد نوماً قال : اللهم باسمك وضعت جنبي ، وباسمك أرفعه ، وإن استيقظ قال : الحمد لله الذي أحيانا بعد أن أماتنا واليه النشور ، وإن لبس ثوباً جديداً قال : الحمد لله الذي رزقني ما أتجمل به في حياتي ، وإن أكل قال : الحمد لله الذي أطعنا وسقانا ، وجعلنا مسلمين ، وإن شرب قال : الحمد لله الذي جعل الماء عذباً فراتاً برحمته ، ولم يجعله ملحاً أجاباً بذنوبنا وإذا انقلب من الليل في فراشه قال : لا اله الا الله الواحد القهار ، رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار ، وإذا هب من نومه في الليل قال : رب اغفر وارحم ، واهد للسبيل الأقوم .

تعلق قلب محمد بالله فهو معه في كل عمل وحين ، وشغف بالعبادة والنسك ، فهو يقوم الليل ، ويصرف فيها جزءاً من النهار ، ويجد في الصلاة لذته وقرّة عينه ، وينهى أصحابه أن يقلدوه فيما لا طاقة لهم به . تقول عائشة كان رسول الله يدع العمل وهو يحب أن يعمل به ، خشية أن يعمل الناس به ، فيفرض عليهم . ويروى أنس أن النبي واصل : أي صام مواصلاً الليل بالنهار ، والنهار بالليل ، يومين أو ثلاثة ، وكان ذلك في آخر رمضان ،

تواصل ناس معه ، فبلغه ذلك ، فقال : لو مد لنا الشهر لواصلنا وصلا يدع له المتعمقون « أى المبالغون » تعمقهم . انى لست مثلكم ، انى أظل يطعننى ربى ويسقينى ، « أى يعيننى ويقوينى » ، وتقول عائشة : صلى رسول الله فى المسجد ، فصلى بصلاته ناس كثير ، ثم صلى من القابلة ، فكثروا ، ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة ، فلم يخرج اليهم ، فلما أصبح قال : قد رأيت صنعكم ، فلم يمنعنى من الخروج اليكم الا أنى خشيت أن تفرض عليكم ، ويقول أنس : كان رسول الله يقوم فى رمضان ، فجئت فقممت الى جنبه ، فجاء رجل آخر ، فقام أيضا ، حتى كنا رهطا ، فلما أحس أنا خلفه ، جعل يتجوز فى صلاته « أى يسرع » ، ثم دخل رحله فصلى صلاة لا يصلحها عندنا ، فقلت له حين أصبحت : أفطنت لنا الليلة قال : نعم ، ذلك الذى حملنى على ما صنعت .

لاشك أن نفس محمد المتصلة بالله ، تستطيع مالا يستطيع الناس ، فهو يود أن ينفرد بما فوق الطاقة ، فاذا نشط أصحابه لمتابعته ، خشى عليهم التعمق والغلو ، وهو الناسك الذى بلغ فى تعبدته مقاما لا يدانى ، وهو الرسول الذى جاء بالحنفية الميسرة ، تلامس حقائق الحياة ، فخلق به أن يغضب اذ يرى الناس يهملون بترك الدنيا والانتقطاع للعبادة ، والله تعالى يقول : « وابتنع فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك » .

رأى أحد أصحابه فى سفر مغارة بجانبها ماء وخضرة ، فمالت نفسه للعلزلة بهما والتعبد ، فغضب ، وذكر له أنه ما جاء باليهودية ، ولا النصرانية ، وانما جاءهم بدين ابراهيم ميسرا سهلا . وأراد بعض الصحابة ، ميلا بفطرته ، أو تأثرا بالرهبانية ، أن ينقطع للعبادة ، فغضب غضبا شديدا ومنعه ، وأراد آخر أن يمتنع عن أكل اللحم تنشطا وتعبدًا ، فردده . ويقول أنس : كنا مع النبى فى سفر ، فمنا الصائم ، ومنا المفطر ، فنزل منزلا فى يوم حار ، أكثرنا خلا صاحب الكساء ، ومنا من يتقى الشمس بيده ، فسقط الصوام ، وقام

المفطرون ، فضربوا الأبنية ، وسقوا الركاب ، فقال صلى الله عليه وسلم : ذهب المفطرون اليوم بالأجر .

وقد نفذت أوامره بالاعتدال والقصد في كل شيء الى قلوب أصحابه ، وأدركوا مقصد أستاذهم الأعظم ، فأخذ بها بعضهم بعضا ، حتى ان سلمان الفارسي دخل بيت أبي الدرداء ، وكانا ممن آخى بينهم النبي في المدينة ، فوجد امرأته متبذلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا ، فجاء أبو الدرداء ، فصنع له طعاما ، فقال : كل ، فاني صائم . قال : ما أنا بأكل حتى تأكل ، فأكل ، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم ، قال : نم ، فنام ، ثم ذهب يقوم ، قال : نم ، فلما كان آخر الليل قال سلمان : قم الآن ، فصليا ، فقال سلمان : ان لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذي حق حقه ، فأثنى النبي فذكر ذلك له ، فقال النبي : صدق سلمان •

وعن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط الى بيوت أزواج النبي ، يسألون عن عبادته ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها ، فقالوا : وأين نحن من النبي ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فقال أحدهم : أما أنا فاني أصلي الليل أبدا ، وقال آخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا ، فجاء رسول الله اليهم فقال : أأنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله اني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني . ذلك هو التوسط الذي أراده محمد ، وكان فيه أعجب رجال التاريخ ، فهو برغم خشيته أن يميل الناس عن القصد ، وأن يفرطوا ويكلفوا أنفسهم مالا يطيقون ، كان المثل الأعلى في التعبد والنسك ، كما كان في الرجولة ، وتصريف شئون الدنيا ، والقيام عليها .

والآن أعود الى نوع من تعبده ، ما أحلاه لفظا ! وأسماء معنى ! ذلك هو الدعاء ، والدعاء كما قال صلى الله عليه وسلم ، هو العبادة : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم » .

انظروا الى هذا الدعاء ، وما فيه من الضراعة والتسليم الكامل : « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين اللهم اهدنى لأحسن الأعمال ، وأحسن الأخلاق ، لا يهْدِي لأحسنها الا أنت ، وقنى سيئ الأعمال . وسيئ الأخلاق لا يقى سيئها الا أنت ، اللهم لك ركعت ، وبك آمنت ، ولك أسلمت ، وعليك توكلت ، أنت ربى ، خشع سمعى وبصرى ولحمى ودمى وعظمى لله رب العالمين ، اللهم اغفر لى ما قدمت ، وما أخرت وما أسررت ، وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا اله الا أنت .

ذلك هو محمد صلى الله عليه وسلم وصل فى نسكه وعبادته الى أرقى مراتب الاخلاص لله ، والتفانى فى طاعته وحبه ، والمشول الدائم فى حضرته ، ووصل فى شئون الدنيا الى اقامة دولة من أنقاض الهيمنة ، والى ابراء المجتمع من علل الاضطراب والفساد ، وفى شخصه التقت أغراض الحياة جميعا على أكمل وجوها .

تلك الناحية من صفات بطل الأبطال يحنى لها الناس جميعا رءوسهم ، واذا رفع اليها أبطال العالم أبصارهم غضوا الطرف أمام الاعجاز المحمدى ، فما كان رجل ممن ملأ السمع والبصر من رجال التاريخ ليقوى على حمل هذا العبء الروحاني ، من العبادة فى الليل والنهار ، وتلقى أعمال الدنيا فى كل يوم على أنشط ما يكون ، وأصلح ما يكون لخدمة نفسه وقومه ، وكفاح أعدائه ، واقامة الدولة الخالدة ، التى تركها بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم فى نشأتها وصولتها .



## عفوہ و صفوہ

عفوہ و صفوہ صلی اللہ علیہ وسلم عمن أسرفوا فی ایذائہ ، هو الخلق  
الکریم الذی أدبہ بہ القرآن ، قال تعالیٰ : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض  
عن الجاهلین » و بین الوحی معناه بقوله : « أن تصل من قطعک ، وتعطى من  
حرمک ، وتعفو عمن ظلمک » فالعفو عند المقدرة مرآة تتجلى فیها أحسن  
صور النفس ، يتجلى فیها سمو المقصد ، وبعد الغایة ، والترفع عن الشهوات ،  
وتبدو البطولة فی أروع صورها ... ولن تجد فی تاریخ الأبطال ، بل تاریخ  
البشر کلهم مثل محمد طافرا ، ناججا ، مؤیدا ، يعطى من حرمه ، ويعفى عمن  
ظلمه .

كانت مكة والطائف مركزى العداوة الشديدة ، تتنافسان فی الوفاء للات  
والعزى ، فلم یکن شرا على محمد من قريش ، ولا أرغب فی الشرك من  
ثقیف ، وبرز فی القريتين رجال مثل أبى جهل بن هشام ، وعكرمة ابنه ، وأمیه  
ابن خلف ، وصفوان ابنه ، والعاص بن وائل السهمى ، والولید بن المغيرة ،  
وأبى سفيان بن حرب ، وبنى عمرو بن عمير الثلاثة ، وأبى مسعود الثقفى ،  
ومالك بن عوف ، وأضرابهم ، ممن اتخذوا ایذاءه صلی اللہ علیہ وسلم  
والسخرية به وقتاله وهجوه متعة بها يتلذذون ، ومفخرة بها یفاخرون .

وينقسم ذلك الأذى والاضطهاد فی رأى الى أربعة أطوار ، ویتبدىء  
الطور الأول بإيذائہ ، والتصغير من شأنه ، وقت أن كان مثل أبى لهب یقول  
له ، وهو یبذر الناس فوق الصفا : تبا لك ! ألهذا دعوتنا ؟ والطور الثانى  
یتبدىء بصحيفة المقاطعة ، وهى میثاق علق بالكعبة ، وتعاهد فیہ المشركون  
على مقاطعة بنى هاشم ، لحمايتهم ابنهم محمدا صلی اللہ علیہ وسلم فکاد

يهلك ذلك البيت جوعاً ، وهو مقطوع فى شعب بنى هاشم . كان هذا الطور شديداً ، فان الميثاق المقدس حرم على الناس أن يتزاوجوا مع آل محمد ، أو يبيعوهم ، أو يشتروا منهم ، أو تكون لهم بهم صلة ما . ويتدىء الطور الثالث بوفاة أبى طالب عمه وحاميه ، وخديجة زوجه ومؤاسيته ، حين نثر التراب على رأسه ، وضاعت عليه الدنيا ، ولولا الايمان والنبوة الصادقة لانتهى به الأمر الى الانتحار ، أو أن يهيم على وجهه فى الأرض .

فى ذلك الطور خرج الى الطائف وحده يلتمس حماية ثقيف ، والامتناع بهم من قومه ، فردوه أشنع رد ، وسخر به زعماءها الثلاثة من بنى عمرو بن عمير ، فقال له أحدهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الآخر : والله لا أكلّمك أبداً .. لئن كنت رسولا كما تقول لأنت أخطر من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ، ما ينبغى لى أن أكلّمك ، فسألهم محمد أن يكتموا عليه ، وقال لهم اذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا ذلك عنى ، وكان يخشى سوء المنقلب الى مكة ، والشماتة والغلو فى ايدائه ، فأبوا حتى هذه عليه ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ، ويصيحون به ، حتى أخرجوه من البلد ، وتتبعه الصبية والسوقة يصيحون مسيرة ثلاثة أميال ، يعبثون به ، ويقذفونه بالحجارة ، حتى أدموا قدميه ، وكلما جلس أقاموه ، وأجبروه على المشى ، فلجأ الى حائط (١) لعتبة بن ربيعة ، فلما اطمأن قال : « اللهم اليك أشكوا ضعف قوتي ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ؟ أم الى عدو ملكته أمرى ؟ ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » . فلما رجع الى مكة لم يستطع أن يدخلها الا فى حماية مطعم بن عدى ، ثم اختتمت مكة هذا الطور من أطوار الايذاء بالعزم على قتله ، وتفريق دمه بين القبائل ، حتى يعجز عن

(١) الحائط : البستان .



طلبه بنو عبد مناف . فهاجر الى المدينة ، وابتدأ بذلك الطور الرابع . وحديث هجرته اليها ، وما لقي في طريقه مشهور .

انظروا بعد ذلك الى معاملته لأهل مكة والطائف ، ورؤساء الفتنة ، وزعماء الشر ، الذين أسرفوا في ايدائه واضطهاده ، لتتجلى لكم نفسه الكريمة في مرآة عفوه وصفحه الجميل . انظروا اليه فاتحا في جيش لم تر جزيرة العرب مثله يكتسح مكة ، وتطوؤها خيله ، ويمر الى حنين والطائف ، فيقع بين يديه ستة آلاف من أسرى هوازن وثقيف ، ويفر من بقى من السادة المتكبرين ، ومالك بن عوف ، وياليل بن عمرو بن عير . انظروا اليه والبلاد في رحمته يشملها عفوه ، والسادة والزعماء الذين عتوا في الأرض يجزون بالبر والاحسان ، وأبطال العالم لاتعرف لأمثالهم غير قطع الرؤوس .

هذا محمد في ذروة المروءة لايدانى ، وقبل أن يصل الجيش الفاتح الى مكة خرج أبو سفيان في ثلاثة نفر مستطلعا ، فعلم أن لاطاقة له ولقومه بقاء محمد ، فأردفه العباس على بغلة النبی التي كان يركبها ، ودخل به المعسكر ليلا ، يطلب الأمان له ولمكة ، فكان كلما من بنار من نار المسلمين قالوا : هذا عم النبي على بغلته ، حتى مر بنار عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : من هذا ؟ فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة ، قال : أبو سفيان عدو الله ! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد .. ثم سارع الى رسول الله يقول : دعنى أضرب عنقه ، فقد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد ، ولكن رسول الله أمر أن يبيت أبو سفيان في رحل العباس . فلما أصبح جئ به . فأسلم وعفا عنه ، فقال العباس : يارسول الله ، ان أبا سفيان رجل يحب الفخر ، فاجعل له شيئا ، فقال : نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن . وعاد أبو سفيان الى مكة مسرعا ، والجيش يزحف اليها ، وهو يقول : والله ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة ! فلما جاء قومه صرخ بأعلى صوته : يامعشر قرينش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن . فقالوا : قاتلك الله ! وما تغنى عنا دارك ؟ فقامت هند بنت عتبة زوجها التي لاكت كبد

حمزة يوم أحد ، فأخذت بشاربه ، وقالت : اقتلوه قبح من طليعة قوم ! فقال أبو سفيان : ويلكم لا تغرنكم هذه عن أنفسكم ، فانه قد جاءكم مالا قبل لكم به ، من دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .

أى مثل فى العفو الكريم أعظم من هذا ؟ أبو سفيان الذى فعل الأفاعيل والذى أدمى كبد الرسول فى أحد ، والذى زلزل بحصاره المسلمين فى الخندق ، أبو سفيان العاق من ولد عبد مناف ، الذى ناصر مخزوما وسهما على محمد وبنى هاشم ، يعفو عنه محمد ، ثم يعطيه مع العفو ما يفخر به ! وقد كانت هبة الحياة كل الرجاء ، فاذا الحياة والجاه بعض عطايا محمد للمقهورين من أعدائه .

دخل رسول الله مكة ، ولكن عكرمة بن أبى جهل ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو ، ومن جمعوا من الناس أبوا الا قتالا ، فهزموا وفروا ، ثم استأنموا فأمنوا ، بل عفى عنهم ، بل أعطوا من غنائم هوازن ، تأليفا لقلوبهم ! وانظروا الى مثل لن تجدوا له شبيها فى تاريخ البشرية ، هذا صفوان بن أمية العدو ابن العدو يفر الى جدة ، ليجر الى اليمن ، فيأتى عمير بن وهب لرسول الله ، فيقول : يا نبي الله ، ان صفوان ابن أمية سيد قومه ، قد خرج هاربا منك ، ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، قال : هو آمن . قال : يا رسول الله ، فأعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه الرسول عمامته التى دخل بها مكة ، فخرج بها عمير حتى أدركه ، وهو يريد أن يركب البحر ، فقال : يا صفوان ، فذاك أبى وأمى ! الله الله فى نفسك أن تهلكها ! فهذا أمان رسول الله قد جئتكم به ، قال : انى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم . فرجع معه حتى وقف به على رسول الله ، فقال صفوان : ان هذا يزعم أنك قد أمنتني؟ قال : صدق . قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين . قال : أنت بالخيار أربعة أشهر .

هذا العدو ابن العدو صفوان بن أمية لا يلقى من بر رسول الله أن يعفو عنه فحسب ، بل يبعث عمامته التى فتح بها مكة تطمينا للهائم على

وجهه الى البحر ، ثم اذا ما طلب منه أن يتركه ليختار الاسلام أو الشرك  
شهرين ، قال : بل أربعة ، كى لا يقهره ولا يذله ، فهل فى تاريخ البشر مثال  
من العفو عند المقدرة أبر وأكرم من هذا الذى فعله بطل الأبطال محمد  
صلى الله عليه وسلم !

وهذا رجل آخر جاءه قبيل الفتح ، وكان عاقا مسرفا فى هجوه وايدائه  
للسول ، هو أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وطلب الاذن عليه ،  
فقال : لا حاجة لى به وقد هتك عرضى ! وكان مع أبى سفيان بنى له ، فقال :  
والله ليأذن لى ، أو لآخذن بيد بنى هذا لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشا  
وجوعا . فلما بلغ رسول الله رق له ، فدخل عليه وعفا عنه ، فقال :

لعمرك انى يوم أحمل راية      لتغلب خيل اللات خيل محمد  
لكالمدلج الحيران أظلم ليله      فهذا أوانى حين أهدى واهتدى

وفى مكة وهو طائف بالبيت أراد فضالة بن عمير أن يقتله ، فلما دنا منه  
قال : أفضالة ؟ قال : نعم ، فضالة يارسول الله . قال : ما كنت تحدث به  
نفسك ؟ قال : لاشىء ، كنت أذكر الله عز وجل ، فضحك النبى صلى الله عليه  
وسلم ، ثم قال : استغفر الله ! ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، فكان  
فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب  
الى منه .

ثم هاكم مثلا من عفوه عن رجل أبكاه ، وقهر المسلمين ، وحزنهم ، وهو  
عبد حبشى يقال له : وحشى ، ذلك هو قاتل حمزة . يقول وحشى : خرجت  
حتى ملت الى رسول الله بعد فتح مكة والطائف ، فلم يرعه الا بى قائما على  
رأسه أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآنى قال : أوحشى ؟ قلت : نعم يارسول  
الله ! قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ؟ قال : فحدثته ، فلما فرغت من  
حديثى قال : ويحك غيب عنى وجهك ، فلا أرينك ، قال : فكنت أتتكب  
رسول الله حيث كان ، لئلا يرانى ، حتى قبضه الله .

ذلكم هو ضبط النفس والعفو في أحسن صورته . رجل لا يستطيع رسول الله أن ينظر الى وجهه ، وهو قاتل عمه ، وهو عبد لا أصل له ولا عشيرة ، يعفو عنه ، وأحب شيء الى المسلمين أن يروا دمه كما رأوا أحشاء حمزة الذي طعنه بحرثته .

ولما اطمأن الناس بعد الفتح قام رسول الله على باب الكعبة ، فقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمي هاتين ، الا سدانة البيت وسقاية الحاج . يا معشر قريش ، ان الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء ، والناس من آدم ، وآدم من تراب . ثم تلا هذه الآية : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم » ثم قال : يا معشر قريش ، ما تظنون أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم . قال اذهبوا فأنتم الطلقاء ...

ثم جلس رسول الله ، فقام اليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة في يده ، فقال : يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقاية ( وكانت الحجابة في غير بنى هاشم ) ، فقال رسول الله : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم بر ووفاء .

وهاهى ذى ثقيف كلها بين يديه ووفدها في المدينة ، وقد أكلتها العرب ، وهانت على الناس ، فماذا فعل بها ، وفى وفدها رجل مثل ياليل بن عمرو بن عبير الذى طرده من الطائف ؟ أما مالك بن عوف فذلك من سبق اليه عفوهُ ، فرد اليه ماله وأولاده ، ووهب له مائة ناقة ، وأما هؤلاء فقد رجعوا الى أهلهم بعفو شامل وأمان كامل ، ولولا ضيق المقام لسمعتهم قصة هوازن ، وكيف رد الرسول سبيها ، واشتراه ديناً عليه لأصحابه ، ليعطيه أعداءه الذين كادوا يقضون على الاسلام يوم حنين ، ولسمعتهم من هذه الأمثلة آيات فى كل قبيلة وكل بلد ، مما تنقضى الأيام ويبقى فيها رسول الله المثل الأعلى ، والقدوة الحسنة للناس جميعا .

## رحمته وبره

جانب عظيم من جوانب شخصية محمد صلى الله عليه وسلم هو جانب رحمته وبره ، الذى لا يدانيه فيه أحد ، وهو صورة لنفسه الكريمة ، فى أيام فقره وغناه ، وضعفه وقوته ، فقد كان البر امامه ، والرحمة محيطة به ، وهو الذى يقول : « ان البر يهدى الى الجنة . ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء ، لا يرحم الله من لا يرحم الناس ، الراحمون يرحمهم الرحمن ، لا تنزع الرحمة الا من شقى » ، وقد وصفه القرآن بهذه الصفة قال تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

كانت رحمته تسع الناس جميعا ، وكان بره يصل الى المؤمنين والمشركون ، وكان الفقراء والضعفاء أقرب الناس الى قلبه الكبير ، وعطفه الشامل ، وبلغ حبه الفقراء أن دعا الله أن يبقى فيهم حيا وميتا . روت عائشة أنه كان يقول : « اللهم أحيني مسكينا ، وأمتني مسكينا ، واحشرنى فى زمرة المساكين » فقالت عائشة : لم يارسول الله ؟ قال : انهم يدخلون الجنة قبل الأغنياء بأربعين خريفا . يا عائشة لا تردى المسكين ولو بشق تمر . يا عائشة ، أحبى المساكين وقربهم يقربك الله يوم القيامة » .

كانت حياته موصولة بالفقراء ، وكان كل ما فى بيته ويده لهم ، وبلغ من عطفه عليهم أن مر رجل عليه ، فقال لرجل عنده : ما رأيك فى هذا ؟ فقال رجل من أشرف الناس ، هذا والله حرى ان خطب أن ينكح وان شفيع أن يشفع . فسكت النبى . ثم مر آخر ، فقال النبى : ما رأيك فى هذا ؟ فقال : رجل من

فقراء المسلمين ، هذا والله حرى ان خطب ألا ينكح ، وان شفع ألا يشفع ،  
وان قال ألا يسمع لقوله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هذا خير من ملء  
الأرض مثل هذا .

لقد عمل محمد بما آتاه الله ، وما أودع فطرته من الرحمة ، على رفع  
شأن الفقير وإكرامه ، والأخذ بيد الضعيف ، وأرسل بره في هذه الطبقة ، حتى  
قلب نظام المجتمع الذى ظهر فيه في سنين قليلة ، وجعل من الفقراء المستضعفين  
أمة دان لها المشرق والمغرب فيما بعد ، كما كان يقول صلى الله عليه وسلم :  
« ابغوني ضعفاءكم ، فانما ترزقون وتنصرون بضعفاءكم » وكان يسره أن  
يجتمعوا اليه . وقد أثر بالحديث مرة واحدة بعض الأغنياء الأقوياء من قومه ،  
فنزل القرآن بمعابته ، فقال : « عبس وتولى أن جاء الأعمى وما يدريك لعله  
يزكى أو يذكر فتتفعه الذكرى أما من استغنى فأنت له تصدى » . الخ ، وطالما  
سخرت قريش منه لحفاوته بالمساكين ، وذهابه بهم الى الحرم ، فقالت أهولاء  
من الله عليهم من بيننا ؟ ، ولكنه كان بالمساكين رءوفا رحيمًا . يقول عبد الله بن  
عمر بن العاص : دخل النبی المسجد ، فجلس الى الفقراء ، وبشرهم بالجنة ،  
وبدا على وجوههم البشر ، فحزنت لأننى لم أكن منهم . ورأى سعد بن أبى  
وقاص يتعالى على المساكين ، فذكر له أن ما ينال من الخير والنصر ، انما هو  
أثر هؤولاء الفقراء ، وأنه مدين للمساكين ، وقد تحقق ذلك واضحا جليا حينما  
قاد سعد هؤولاء الفقراء المستضعفين الى القادسية ، فهزم رستم ، ووطىء  
دولة الأكاسرة ، التى كان العرب بعض رعاياها .

كانت رحمته وبره بالمساكين تمتد الى ما بعد الموت . جاء في صحيح  
البخارى « أن النبی ذكر ذات يوم رجلا أسود ، فقال ما فعل ذلك الانسان ؟  
قالوا : مات يارسول الله ، قال : أفلا آذنتموني ؟ فقالوا : انه كان كذا وكذا  
قصته ، فحقروا من شأنه ، قال : فدلوني على قبره ، فأتى قبره ، فصلى عليه .» .

وكان صلى الله عليه وسلم يجاهد لتحرير العبيد ، ولرفع قيمتهم ، فلم  
يدخر مالا . ولا سلطانا ولا دعوة فى سبيلهم ، وكانت نفسه تفيض بالرحمة

عليهم والبر بهم ، وأظهر مثل ما كان منه مع مملوكه زيد بن حارثة ، الذي خير بين سيده محمد ووالده ، فاختار محمداً في الوقت الذي كان لا حول له ولا قوة ، بل كان موضع أذى قريش وسخريتها ، وهو الذي جعل معتوقه زيدا هذا ، القائد الأعلى للمهاجرين والأنصار حين وجههم لغزو الروم ، فاستشهد في وقعة مؤتة ، ولما استأنف النبي غزو الروم بعد الفتح أمر شاباً ابن رقيق ، هو أسامة بن زيد هذا وهو حدث في العشرين ، ومشى أكابر الصحابة وأشرف قريش والنبي في موكبه .

أرأيتم اذن كيف رفع برحمته وبره شأن الأرقاء المستعبدين ؟ وكان صلى الله عليه وسلم يقول : « لا يدخل الجنة سييء الملكة ، ويقول : حسن الملكة يمن وسوء الملكة شؤم » .

وكان باراً بالخدم والعمال ، روى أبو هريرة أن النبي قال : « اذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فان لم يجلس معه فليناوله لقمة أو لقتين » ا وقال معاوية بن سويد : كنا بنى مقرن على عهد رسول الله ليس لنا خادم الا واحدة ، فلطمها أحدنا ، فبلغ ذلك رسول الله فقال : أعتقوها ، فقيل . ليس لهم خادم غيرها . قال : فليستخدموها ، فاذا استغنوا عنها فليخلوا سبيلها . وعن أبي مسعود قال : ضربت غلاماً لى بالسوط ، فسمعت صوتاً من خلفي ، فاذا برسول الله يقول : اعلم يا أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام . وبلغ من رحمة محمد أنه كان لا يطبق أحداً يقول : عبيد أو أمتى ، فأمر المسلمين أن يكفوا عن ذلك ، وأن يقولوا : فتاى وفتاتى . وقد كان لهذه التربية أحسن الأثر في تحرير الأرقاء ، ونشر المساواة ، وتغليب روح الأخوة على ما كان من العصبية ، والغرور ، والتفاخر .

يقول المعرور بن سويد : رأيت أبا ذر وعليه حله ، وعلى غلامه مثلها ، فسأله عن ذلك ، فقال : سمعت رسول الله يقول : هم اخوانكم جعلهم الله تعالى تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فان كلفتموهم فأعينوهم .

عليه . وقال أنس : خدمت رسول الله عشر سنين ، فما قال لى أف قط ، وكان صلى الله عليه وسلم يخالط المساكين والخدم والعبيد ويحادثهم ويحبب دعوتهم ، ويعود مرضاهم ، ويمشى في جنازهم ، ويصلى عليهم ، وقد جعلت الشريعة المحمدية نصيبا في بيت المال لتحرير الأرقاء ، وكان صلى الله عليه وسلم يعطى العبد بعد تحريره شيئا يعينه على الكسب .

لم يكن رسول الله ليقتصر رحمته وبره ، الذى هو صورة صادقة لنفسه الكريمة ، على الناطقين من بنى الانسان ، فان هذه الرحمة ملكت مشاعره ، وحفزه لكفاح موفق في سبيل الرفق بالحيوان ، فكم كان للعرب من عادات مردولة أنكرها وأزالها . كانوا يقتطعون من حيواناتهم ، وهى حية فيشؤون ويطعمون ، فحرم ذلك ، ولا يزال الى اليوم بعض الطوائف في الصحراء الكبرى برغم اسلامهم يعملون شيئا من هذا ، فهم اذا خرجوا للغزو ، وبعدت عليهم الشقة ، فصدوا البعير ، فأخذوا من دمه ، وطبخوه وأكلوه ، أو شقوا عن سنامه فاقتطعوا من الدهن ، ثم خاطوا السنام ، وأكلوا الدهن . وكان وشم الحيوان ، ولا يزال ضرورة لاثبات الملكية في البادية ، فنهى عن ذلك الأذى ، وخففه باختيار أقل الأثر في أقل الأعضاء احساسا . وكان للعرب يتخذون من دوابهم أهدافا للرماية ، فنهى عن ذلك ، وعن أن يقطعوا ذبول الخيل . ومرة بناقة مربوطة جائعة ، فحل وثاقها وأطلقها . وأوصى الناس أن يخشوا الله في البهائم ، ومن الأمثلة التى ضربها صلى الله عليه وسلم أنه قال : بينما رجل يمشى بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئرا ، فنزل فيها ، فشرب ثم خرج واذا كلب يلهث ، يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى كان بلغ منى ! فنزل البئر ، فملا خفه ماء ، ثم أمسكه بفيه حتى رقى ، فسقى الكلب ، فشكر الله تعالى له ، فغفر له « فقالوا : يارسول الله ، وان لنا في البهائم لأجرا ؟ قال : في كل كبد رطبة أجر . وقال أيضا : دخلت امرأة النار في هرة ربطتها ، فلم تطعمها ، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض .



تلك الأمثال يضربها محمد تقوم ماكانوا يظنون في الرفق بالحيوان أجرا ، وقد كان لها أكبر الأثر من الرحمة والرفق في نفوس المسلمين ، ومن تأدب بأدبهم في الشرق والغرب ، وكان من عادات الجاهلية أن يتخذوا ظهور دوابهم منابر ، فنهى عن ذلك ، وقال : إنما سخرها الله لكم لتبلغكم الى بلد لم تكونوا بالغيه الا بشق الأنفس ، وجعل لكم الأرض ، فعليها فاقضوا حاجاتكم .

وهذه رحمته يفيض بها قلبه الكبير على عصفور صغير : قال عبد الرحمن بن عبد الله ، كنا مع رسول الله في سفر ، فرأينا حمرة ، ( طائر في شكل العصفور ) معها فرخان لها ، فأخذناهما ، فجاءت الحمرة تعرش ( أى ترفرف ) ، فلما جاء الرسول قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا ولدها اليها . وقال صلى الله عليه وسلم في قسوة عائشة على بعير ركبته : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » .

هذه الرحمة بالانسان والحيوان كانت تظهر أنسا وبشرا في وجهه اذا رأى الطفل ، أو لقي الصبي ، فقد كان يأخذ أطفال أصحابه بين ذراعيه ، ويطلب لذلك ، وكان اذا مر بالصبيّة يقرئهم السلام . وحدث جابر بن سمرة : أن النبي رأى صبيّة يتسابقون ، فجرى معهم ، وكان يلقي الصبي في الطريق فيركبه ناقته ليسره ، وكان أبر والد بولده ، يقول أنس : انه لا يعلم رجلا أبر بأهله وولده من محمد . وقال أسامة بن زيد : كان رسول الله يأخذني فيقعدني على فخذه ، ويقعد الحسن على فخذه الأخرى ، ثم يضمهما ، ثم يقول : اللهم ارحمهما فاني أرحمهما . وقد حدث أن عجب بعض الأعراب من رسول الله وهو يقبل أولاده وأولاد أصحابه ، فقال الأقرع بن حابس مرة وقد رآه يقبل الحسين : ان لى عشرة أولاد ما قبلت أحدا منهم قط ، واعترض آخرون بمثل هذا المعنى على الشفقة غير المألوفة ، وكان محمد ينكر عليهم أن يكونوا غلاظ الأكباد قساة القلوب . قالت عائشة : جاء أعرابي الى النبي ، فقال : أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم : فقال النبي : أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وهذه الرحمة في نفس محمد كما كانت تبدو بشرا وأنسا ، كانت تفيض دمعا وأسى ، وكان جفاة القوم يستعظمون هذه عليه ، فكان يبين لهم أنها رحمة ، وأن لا عيب فيها .

مات لاحدى بناته ولد ، فلما رفع اليه وكانت نفسه تتفقع كأنها شن ، ( أى قرية جف جلدها ) فاضت عيناه ، فقال سعد بن عباد : يارسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، وانما يرحم الله من عباده الرحماء وجاءت نوبة سعد نفسه ، فاشتكى ، وذهب النبي يعودده ، فلما دخل عليه ، فوجده في غاشية بين أهله . قال : قد قضى ؟ قالوا : لا يارسول الله ، فبكى النبي ، وقال : ألا تسمعون ان الله لا يعذب بدمع العين ، ولا حزن القلب ، ولكن يعذب بهذا ، وأشار الى لسانه .

هذه الرحمة بالكبير والصغير لم تكن خاصة بأتباعه المؤمنين ، بل كانت شاملة لأعدائه المشركين والمخالفين من أهل الملل الأخرى . رفع اليه يعد لاحدى الوقعات أن صببة قتلوا بين الصفوف ، فحزن حزنا شديدا ، فقال بعضهم : ما يحزنك يارسول الله وهم صببة للمشركين ؟ فغضب النبي ، وقال ما معناه : ان هؤلاء خير منكم ، انهم على الفطرة ، فاياكم وقتل الأولاد ، اياكم وقتل الأولاد . وروى البخارى عن جابر بن عبد الله قال : مرت بنا جنازة ، فقام لها النبي وقمنا ، فقلنا : يارسول الله ، انها جنازة يهودى ، فقال : أو ليست نفسا ؟! اذا رأيتم الجنازة فقوموا . ولما مات النجاشى نعاه لأصحابه ، ثم تقدم ، فصصف الناس خلفه وصلى عليه .

تلك هى الرحمة التى لاتعرف التخصيص بالدين أو الوطن ، ولا فرق عندها بين الرفق بالانسان والحيوان .

وسئل مرة أن يعلن أعداءه ، فقال : ما جئت لعانا ، بل رحمة . ولما مات عبد الله بن أبى بن سلول ، وكان زعيم المنافقين فى المدينة ، وهو الذى رجع بمن تبعه من الطريق يوم أحد ، فخذل النبي فى أخرج أوقاته ، وله مواقف مشهورة كان فيها شرا على الرسول والمسلمين . لما مات طلب ابنه

من النبي قميصه ليكفنه فيه ، تطهيرا له ، فأعطاه قميصه كفنا لزعيم المنافقين .  
 أرأيت أبر وأكرم من هذا الصنيع ؟ ثم مشى النبي الى قبره ، فوقف يريد  
 الصلاة عليه ، فوثب اليه عمر بن الخطاب ، وقال يا رسول الله أنصلي على  
 ابن أبي وقد قال يوم كذا وكذا وكذا ؟! يعد عليه قوله ، فتبسم الرسول ،  
 وقال : عني يا عمر .. قال عمر : فلما أكثر عليه قال : انى خيرت فاخترت ،  
 لو أعلم أنى لو زدت على السبعين غفر له لزدت عليها ، وانصرف .

وذلك اشارة الى قوله تعالى فى المنافقين : « استغفر لهم أو لا تستغفر  
 لهم ، ان تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » ، ففى الخيار بين أن  
 يستغفر ، وألا يستغفر ، نزعته به طبيعته الرحيمة الى الاستغفار لأعدائه بل  
 قال لعمر : لو علمت أنى لو زدت فى الاستغفار على السبعين غفر لهم ،  
 لفعلت أكثر من سبعين مرة .

تلك هى الرحمة التى وسعت أعداءه وأصدقائه والناس جميعا .  
 وسمع مرة أعرابيا يصلى خلفه ، يقول : اللهم ارحمنى ومحمدا ، ولا  
 ترحم معنا أحدا ، فلما سلم قال : لقد ضيقت واسعا .  
 فمن هذا وغيره مما سقناه من الأمثلة على امتلاء نفسه بالرحمة ، يتضح  
 أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن تناجا للبيئة التى عاش فيها ، وانما كان  
 الرحمة الشاملة فى وسط الجفوة والعصبية والأثرة ، تلك الرحمة التى لاحد  
 لها هى التى جعلته يدعو لأعدائه ، وقد سئل الدعاء عليهم فى أحد وهو  
 جريح ، وعنه حمزة ممثل به ، وأنصاره بين القتل والجرح والتشريد . وهى  
 التى جعلته يدعو لثقيف يوم الطائف وقد امتنعت عليه . وتلك الرحمة هى  
 التى جعلته يفتح لتجارة قريش طريق اليمامة ، وطريق الشام ، وقد سأله  
 صلاة الرحمة ، وشكوا جوع أهليهم ، وهم الذين أخرجوه من داره وحصلوه  
 فى المدينة .

فرحمته وبره صلى الله عليه وسلم وسعتا العدو والصديق ، والقوى  
 والضعيف ، والحر والعبد ، والحيوان ، وفاض بها قلبه الكبير ، فكانت فى  
 فمه بشرا ، وفى عينه دمعا ، وفى يده جودا .

تلك الرحمة التي وسعت الجميع هي أبرز صفات محمد . وهي التي  
يتسابق الأبطال اليها ، فيردون عن هذا المدى ، ويبقى رسول الله المثل  
الكامل ، والقدوة العظمى . وحقا كان كما قال عن نفسه « انما أنا رحمة  
مهداة » وكما قال القرآن الكريم له : « وما أرسلناك الا رحمة للعالمين » .

## فصاحته وبلغته

لم يكن بطل الأبطال وخاتم النبيين صلى الله عليه وسلم الا بشرا يوحى اليه ، وما أوتى عن طريق الوحي قد فصلت آياته في الكتاب ، وفيما عدا ذلك من الأقوال والأعمال ، فانما هي ثمرة عقل راجح ، ولسان فصيح في ذات فذة ، وله في غير الوحي من القول والعمل ما يكفيه ليبقى أبدا الدهر امام البلاغة والفصاحة ، وسيد الرجال ، بل الرجل الفذ في تاريخ البشرية ، الذي اجتمعت له أمور ثلاثة :

الأول : تكوين أمة من قبائل وشعوب متنافرة ، كأنما خلقت لتتباع وتتطاحن .

والثاني : تأسيس دولة بقيت قرونا مصدر السلطان في وسط الدنيا ، ولا يزال أثرها أكثر من ألف سنة يهيم الملك لآل هاشم أينما ظهرُوا في المشرق والمغرب .

والثالث : اقامة دين يدين به مئات الملايين ، ويخلص له العرب والعجم ، والأبيض والأسود والأصفر .

وتلك الأمور الثلاثة التي اجتمعت له والتي تكفى كل واحدة منها لتخليد الذكر ، هي بعد الوحي كما قلت تناج ذلك اللسان الفصيح ، والعقل المدبر .

وقد أجمع الناس على أن محمدا الأُمى قد أوتى من الأسلوب السهل المعجز ما لم يَؤْت معلم ولا متعلم ، ممن دانت لهم العربية ، وملكوا زمامها ،

فله جوامع الكلم ، وبدائع الحكم في لفظ ناصح . وقول جزل ، ومعان صحاح خالدة ، في عبارات مضيئة مشرقة ، لا تكلف فيها .

قال له أصحابه يوما : ما رأينا الذي هو أفصح منك ! فقال : وما يمنعني ، وإنما أنزل القرآن بلساني : لسان عربي مبين . وقد فسر صلى الله عليه وسلم فصاحته بنشأته في بني سعد ، ومولده في قريش ، يريد أنه جمع قوة عارضة البادية وجزالتها ورونق الحاضرة وزخرف صناعتها وروعها . غير أن نشأته في بني سعد ، ونسبته في قريش ، لا تفسر لنا ناحية أخرى ، وهي مقدرته على أن يخاطب كل قبيلة وشعب من الشعوب العربية بلهجته ، ويبدى في هذه اللهجات جميعا من مطرب القول وجامعه ما يسبى قلب سامعه ، سواء أكان السامع من قحطان أم عدنان ، من أقصى جنوب الجزيرة أم شمالها ، من حجازها أم تهامتها أم نجدها ، فانه مقر لمحمد بالامامة في البلاغة والفصاحة ، في أى لهجة جرى عليها الحديث .

كان كلامه بينا لافضول فيه ولا تقصير ، يحفظه من جلس اليه . تقول عائشة : ما كان رسول الله يسرد كسر دكم هذا ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من جلس اليه . وروى عنها أيضا : أنه كان يحدث حديثا لو عده العاد لأحصاه .

ولقد كان بطل الأبطال ، علم البيان في قومه الذين اشتهروا بالفصاحة ، والذين كانوا يقيمون للأدب أسواقا ، ويكتبون بالذهب ، ويعلقون على الكعبة ما يستحسنون من القول ، وكان أبو بكر رضى الله عنه نسابا مشهورا في قريش في الجاهلية والاسلام وكان في حيرة من فصاحة محمد وبلاغته ، قال له يوما : لقد طفت في العرب ، وسمعت فصحاءهم ، فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ قال : أدبني ربي فأحسن تأديبي . وذلك هو التفسير الصحيح ، لأن محمدا فطر على صفاء الحس ، ونفاذ البصيرة ، وصحة الحكم ، واستقامة الطبع ، مما هو جلى في قوله وعمله .

ويقول الجاحظ ، ومكاته في الأدب ما تعلمون ، يصف كلام الرسول : « ألقى الله على كلامه المحبة ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة ،

وهو مع استغنائيه عن اعادته ، وقلة حاجة السامع الى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له قدم ولا بارت له حجة ، ولم يقيم له خصم ، ولا أفحمه خطيب ، بل يبد الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس اسكات الخصم الا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج الا بالصدق ، ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا .. من كلامه صلى الله عليه وسلم .

وانى محاول الآن أن أسوق لكم نبذا من قوله فى مواضع شتى ، ومعان متفرقة ، فيها ترون الفصاحة والبلاغة المحمدية حية منيرة ، لم تبل القرون جدتها ، ولم تذهب شيئا من طلاوتها . انظروا الى هذه الكلمات : قال رسول الله : أمرنى ربى بتسع : خشية الله فى السر والعلانية ، وكلمة العدل فى الغضب والرضا ، والقصد فى الفقر والغنى ، وأن أصل من قطعنى ، وأعطى من حرمنى ، وأعفو عمن ظلمنى ، وأن يكون صمتى فكرا ، ونطقى ذكرا . ونظرى عبرة .

وقد وجدوا مكتوبا على قائم سيفه صلى الله عليه وسلم : أعف عمن ظلمك ، وصل من قطعك ، وأحسن الى من أساء اليك ، وقل الحق ولو على نفسك .

ويقول ابن عباس : كنت رديف رسول الله فقال : يا غلام ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف الى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة ، اذا سألت فاسأل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله ، فان العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا على ذلك . جفت الأقلام ، وطويت الصحف ! فان استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين ، فافعل ، فان لم تستطع فان فى الصبر على ماتكره خيرا كثيرا ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا ، ولن يغلب عسر يسرين .

وعن أبى ذر : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن » .

وعن ابن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله : خصلتان من كانتا فيه كتب الله تعالى شاكرا صابرا ، ومن لم تكونا فيه لم يكتبه الله شاكرا ولا صابرا : من نظر في دينه الى من هو فوقه ، فاقتدى به ، ونظر في دنياء الى من هو دونه ، فحمد الله على ما فضله به عليه .

وعن حذيفة قال رسول الله : « لا يكن أحدكم امعة ( وهو الذى لا يثبت مع أحد ولا على رأى لضعفه ) يقول : أنا مع الناس ، ان أحسن الناس أحسنت ، وان أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم ان أحسن الناس أن تحسنوا ، وان أساءوا أن تجنبوا اساءتهم » .

وعن معاوية أمير المؤمنين أنه كتب الى عائشة : أن اكتبى الى كتابا توصينى فيه ولا تكثرى ، فكتبت : سلام عليك ، أما بعد ، فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله تعالى مئونة الناس ، ومن التمس رضا الناس بسخط الله وكله الله تعالى الى الناس ، والسلام عليك » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « شر ما فى الرجل ، شح هالغ ، وجبن خالغ ، اتقوا الظلم ، فان الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فان الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم » ، وقال : « ان الله كره لكم ثلاثا ، قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » ، وقال : « لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك » ، وقال : « ألا أنبئكم بشراركم ؟ الذى يأكل وحده ، ويجلد عبده ، ويمنع رفده » .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله : « يوشك ان طالت بك مدة أن ترى قوما فى أيديهم مثل أذنان البقر ، يعدون فى غضب الله ، ويروحون فى سخط الله » .

وقال : « صنفان من أهل النار ولم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر ، يضربون بها الناس ، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات ، رءوسهن كأسنمة البخت لا يدخلن الجنة ، ولا يرحن ريحها » . وقال : « نعمتان مغبون فىهما كثير من الناس الصحة والفراغ » .



ثم انظروا الى هذه الكلمات الموجزة ، وتدبروا ما فيها من حكم بالغة :  
 لاخير في صحبة من لا يرى لك ماترى له . رحم الله عبدا قال خيرا فغنم ، أو  
 سكت فسلم . الناس بزمانهم أشبه . العدة عطية . العاقل ألوف مألوف .  
 لا تزال أمتى بخير ما لم تر الأمانة مغنما ، والصدقة مغرما . اتقوا المهلكات :  
 شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه .

كان صلى الله عليه وسلم خطيبا لا يبارى ، يقصد الى الحقيقة ، فيضعها  
 بين سمع الناس وبصرهم ، لا يحاول أن يستبى القلوب بزخرف القول ، يكره  
 التفاسيح والتنطع ، بين العبارة ، واضح المعنى ، وله خطب طوال لا حشو  
 فيها ولا تقصير . وقصارى القول أن كلامه هو الكلام الموجز الشامل  
 المعجز .

يقول الخدرى صلى بنا النبي يوما صلاة العصر ، ثم قام خطيبا ، فلم  
 يدع شيئا يكون الى قيام الساعة الا أخبرنا به ، حفظه من حفظه ، ونسيه من  
 نسيه ، وكان فيما قال : ان الدنيا خضرة حلوة ، وان الله مستخلفكم فيها ،  
 فناظر كيف تعملون ، ألا فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء ، ألا لا يمنعن رجلا  
 هيبة الناس أن يقول بحق اذا علمه ، ألا انه ينصب لكل غادر لواء يوم  
 القيامة بقدر غدرته ، ولا غدره أعظم من غدره امام عاق . ألا وان الغضب  
 جمره فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه ، وانتفاخ أوداجه ، فمن أحس  
 بشيء من ذلك فليصق بالأرض .

ثم انظروا الى هذه الخطبة الجامعة لكثير من أصول الشرائع ، فى صفحة  
 موجزة ، يلقيها على مائة ألف ، فى موقف عرفة ، فى حجة الوداع ، ففيها  
 ألغى مآثر الجاهلية ، وقرر مبادئ المساواة ، وحرم الثأر ، وقضى بذلك على  
 أقدم عرف للعرب ، وأمس شئ بقلوبهم ، وقضى كذلك على الربا ، ورفع  
 درجة المرأة ، وحرم الفتن والنهب والغزو ، وكان مفخرة وعزة ، وذكر الأشهر  
 الحرم ، فسوى بين أوقات السنة فيما هو حلال أو حرام ، وقد كان الروم  
 يستغلون تحريم العرب للمقتال فى شهور معينة ، فيعتدون على حدودهم ،

ونصح الناس فى أمور شتى وحذرهم ما يحقرون من أعمالهم ، ويستنهون به من الآثام .

قال صلى الله عليه وسلم : أيها الناس اسمعوا قولى ، فانى لا أدرى لعلى لألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدا . أيها الناس : ان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متواليات : ذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . أى شهر هذا ؟ أليس ذا الحجة ؟ قالوا : بلى ، قال : فأى يوم هذا ؟ قال : أليس يوم النحر ؟ قالوا : بلى ، قال : فان دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، ألا فلا ترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ، ألا ليبلى الشاهد الغائب فلعن بعض من يبلغه أن يكون أوعى له من بعض من سمعه ، ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان كل ربا موضوع ( أى مهدر ) ، ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، قضى الله أنه لاربا ، وان ربا عباس بن عبد المطلب ( عم النبى ) موضوع كله ، وان كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وان أول دمائكم أضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ( أى ابن عم النبى ) . أما بعد أيها الناس ، فان الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه ان يطع فيها سوى ذلك ، فقد رضى بما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : « انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلون له عاما ، ويحرم له عاما ، ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله » .  
أما بعد : أيها الناس : فان لكم على نساءكم حقا ، ولهن عليكم حقا ، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا غيركم تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فان فعلا ، فان الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع ، وأن تضربوهن ضربا غير مبرح ، فان اتتهن فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

أيها الناس : استوصوا بالنساء خيرا ، فانهن عندكم عوان (١) لا يمكن  
لأنفسهن شيئا ، فاعقلوا — أيها الناس — قولي ، فاني قد بلغت ، وقد  
تركت فيكم ما ان اعتصمت به فلن تضلوا : كتاب الله ، وسنة رسوله .

أيها الناس : اسمعوا قولي واعقلوه تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ،  
وأن المسلمين أخوة ، فلا يحل لامرء مال أخيه الا ما أعطاه عن طيب نفس  
منه ، فلا تظلمن أنفسكم ، اللهم هل بلغت ؟

فأجاب الناس من كل صوب ، نعم . فقال : اللهم اشهد ، ونزل عن  
ناقته .

هذه الخطبة جمعت أصولا قد تبدو الآن معترفا بها ، مجمعا عليها ،  
ولكن الذين درسوا حالة المجتمع العربي وقت القائما ، بل حالة المجتمع  
الانسانى ، يعرفون أنها كانت أساسا جديدا لأكبر انقلاب اجتماعى منذ  
ظهوره صلى الله عليه وسلم ، ويلحظون احاطتها على قصرها بالداء والدواء ،  
وان فيها أسس الحضارة التى جعلت من العرب الضلال أمة تسوس المشرق  
والمغرب قرونا كثيرة .

وهاهى ذى الأيام تمر فتبلى كل جديد ، وفصاحة محمد وبلاغته لاتزال  
نضرة عذبة يبتهج بها المتطلع الى الأدب والعلم ، ويجد فيها الأديب ريا  
وشفاء .

---

(١) جمع غانية ، أى أسيرات ، شبههن بالأسيرات لضعفهن .



## مسن سياسته ومهمته في تصريف الأمور

صفة عظمى من صفات الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى مثل لرجال الدولة والسياسة والقادة فى جميع ميادين الإصلاح . لعلهم كذلك واجدون فيها ما يمكنهم من النجاح ، فان محمدا بما أوتى من الأخلاق ، وما وهب له من حسن السياسة ، وتصريف الأمور ، ووضعها فى نصابها ، قد أوتى النجاح الذى لم يؤته أحد قبله ولا بعده .

هذه الناحية من حياته يبدو فيها محمد مثالا عاليا لرجل الدولة ، وسترون بها ميزة على من سبقه من الأنبياء والرسل والأبطال ، ولقد كانت أكثر وضوحا فى المدينة حيث استلزمت الأحوال أن يكون نبي الأمة وزعيمها وقائدها ، وحيث أخذ التشريع الإسلامى يتناول الحياة السياسية والاجتماعية بتوسع وتفصيل أكثر مما كان فى مكة ، حين كانت الدعوة لا تزال فى بدايتها ، متجهة بكل قوتها الى تعريف الناس بالله ، وانذارهم حسابا وعقابه ، ذلك الفرق بين مظهرى الدعوة فى بيئتين مختلفتين ، جعل بعض كتاب الملل الأخرى يحاولون أن يصوروا محمدا فى شخصيتين : مكى ومدنى يقولون هذا نبي ، وهذا رجل دولة وصاحب سلطان .

لو أن الذين يظنون هذا الظن كانوا بعيدى النظر لرأوا محمدا الواعظ فى مكة ، هو محمدا الناسك فى المدينة ، الذى تتورم قدماه من كثرة الوقوف بين يدي الله ، والذى يموت وهو رأس الدولة ، ودرعه مرهونة عند يهودى .

بل لرأوا محمدا الذى يشيعه العبيد والصبية والسوقة من الطائف بالسخرية والحجارة ويقيمونه اذا جلس من الاعياء فيدعو الله لهم بالهداية

هو محمدا الذى يناول مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة يوم الفتح ويقول :  
اليوم يوم بر ووفاء .

لو أن هؤلاء الذين جعلوه نبيا في مكة ، ورجل دولة في المدينة لاحظوا  
كيف وضعت نواة الدولة في أيام المحنة بمكة ، لما حسبوها من غرس يثرب ،  
بل علموا أنها نتيجة محتومة للصراع العنيف ، الذى دام ثلاث عشرة سنة ،  
وتتاجا للدعوة من وقت أن قال الله عز وجل : « فاصدع بما تؤمر وأعرض  
عن المشركين » .

وما قامت الدولة في يثرب الا على أيدي تلاميذ النبي في مكة ، ممن  
هاجروا في سبيل الله الى الحبشة أولا وثانيا ، ومن هاجروا الى يثرب بعد  
ذلك ، وعلى سواعد الأنصار من أصحاب البيعة الأولى والثانية عند العقبة  
في مكة .

أولئك هم نواة الأمة النموذجية التى غرسها الرسول في المدينة ، وشاد  
عليها الدولة المحمدية ، ثم ظهرت ( الامبراطورية ) الاسلامية على صورتها  
فيما بعد .

كان محمد في مكة والمدينة من ساعة أن استيقظ على صوت الرفيق  
الأعلى في حراء ، الى أن استجابت روحه لذلك الرفيق في بيت عائشة ،  
واضح الهدف ، متعدد الوسيلة ، راجح العقل ، حسن السياسة .

قبل في مكة أن ينتفع بعرفها ، فعاش في جوار عبد المطلب وهو مشرك ،  
وطلب في عودته من الطائف جوار المطعم بن عدى فدخل مكة في حمايته وهو  
مشرك ، ولذلك قبل الاستفادة من نظم أهل الأوثان ، ليقهر الأوثان في مكة ،  
وقبل في المدينة أن ينظم أهلها ويعاهدهم ، ويستعين بهم ويقودهم الى  
النصر ، ليحمي نفسه وصحبه ، ويقضى على الأوثان .

موهبة واحدة ، ووسيلة واحدة ، لغاية واحدة ، في أحوال شتى ،  
أخطأ هؤلاء الكتاب تصويرها .

وان كان يبدو في المدينة كثير التشريع والتنظيم والتصريف لشئون الحياة ، فليس ذلك برهانا على تغيره ، بل على تفوقه وأنه فياض الموارد ، خصب العقل .

فذاث الرسول التي وقفت في وجه المشركين ثلاثة عشر عاما بمكة لا تعجز ، ولا تهن ، ولا تيأس ، هي ذاته التي فاضت في المدينة على شئون الدنيا ، فدلّت على ما فيها من الحيوية والقوى التي جعلتها أهلا للتغلب على دل معضلة في وقتها ومناسباتها .

تلك القوى والصفات التي لم تجتمع لأحد قبله ولا بعده ، جعلته من آية ناحية نظرت اليه مثلا كاملا ، وأسوة حسنة ، بل من مجموع هذه القوى والصفات يبرز للناس رسول الله سواء أكان في أيام الدعوة المجردة عن السلطة ، أم في أيام الدعوة المصحوبة بالرياسة الزمنية في المدينة ، ذاتا موفقة ناجحة ، انصرفت الى الله بكليتها فجعلته أمامها ، ووضعت ماعداه وراءها ! هو في كلتا القريتين الناسك العابد ، الباكي بين يدي خالقه ، وهو فيهما الزاهد ، يعرض عليه أصحابه أن يوطنوا له فراشا ، فيقول : مالى وللدنيا ! ما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها .. لم يعرفه السلطان بشيء من المظاهر ، ولا خرج به عن التواضع والتياسر .

فأى تنافر يجد النقاد في حياة الرسول ، ليجعلوا من شخصه شخصين ، وهو يكافح في مكة ولا سلطان له ، ويجاهد في المدينة على رأس الدولة التي خلقتها ؟ لقد كان همه فيهما جميعا الى اللحظة الأخيرة ، نشر دينه ، وغايته بسط سيادة الاسلام على الشرك .

وأى تناقض يجد نقاده بين حياته في مكة ، وحياته في المدينة ، وهو في الأولى يتوسل بالصبر على الأذى والسخرية وينتقى بعرف الجاهلية الموت مع أنه لا يقر ذلك العرف ، ويسعى لهدمه ، ويرسل المؤمنين مهاجرين الى الحبشة ، ويجادل عن دينه ، ويدعو اليه ، ويخرج من كل كارثة برأى صائب ، ويعد لكل حالة تدبيراً محكما ، وفي الثانية يتخذ من نصره أهلها تكأة ،

فيعاهد اليهود والمشركون ، ويتقى الموت بدرع الدولة التى نظمها ، وينجو من ( الأحزاب ) بحسن رأى ، ويغلب المصائب بموفق التدبير ؟

ثلاث عشرة سنة قضاها فى فم الأسد ، دون أن يستطيع الأسد أن يطبق عليه أنيابه ، وعشر سنين فى المدينة يحاول فيها الأسد أن يمسك بالفريسة ، وفى هذه وتلك يبدى رسول الله من حسن رأى ، وبارع السياسة والصبر ، وسعة الصدر والتدبير ما يوقع الأسد فى شبكة الفريسة ، فإذا ما انتهى الى النصر الحاسم المعجز ، وبهت الذين كفروا ، قالوا : لو انه لم يقيم دولة ولم يقدر جيشا ، لكان النبى الخالص من الشوائب ١٠٠

لو أن الذين يأخذون على محمد أنه لم يقتصر على حياة الوعظ ، وظنوا أن الأكمل له أن يقف عند الجهر بالدعوة حتى يقتل ، فكروا فى مصير الدعوة نفسها ، لشاركونا فى الاعجاب به مرشدا وواعظا ، ومنظما وفاتحا .

فبين جفاة الأعراب فى بيئة الأوثان والعزة بالعصية ، والتفاخر بإباحة الدماء والأموال والأعراض ، لم يكن لدعوة محمد بعد قتله مصير الا الاندحار والسخرية به وبها ، وقد علمت ذلك قريش ، وأعدوا له عدته وهيئوا لبنى هاشم من بعده الموقف الذى ليس لهم فيه الا الدية صاغرين .

لو أن هؤلاء النقاد كانوا أكثر بصيرة بحياة العرب ، لأدركوا مع السهولة هذه الحال ، ولو سلك الرسول ذلك السبيل ، وبقي فى موقفه ساكنا الى آخر لحظة ، لما بقى من دينه الا بعض مواعظ تروى ضمن أساطير التاريخ ، أو لبقيت الدعوة على أحسن الفروض موكولة الى المصادفات كما بقى غيرها ، حتى يتاح لها رجل من الجبابرة ، أو من المصلحين ، يأخذها ويضع سيفه بجانبها ، حتى يظهرها على غيرها ، وهى صورة محرفة لما أراد الله وأراد محمد . ومع ذلك ماذا يريد الناقدون من رجل كامل العقل والرجولة أن يعمل ، وقد هم القوم بقتله ، ففر منهم ويهمون بتعقبه للقضاء عليه فى ملجئه ؟ وكل ما بينه وبينهم من خلاف قائم على نفس العقيدة التى ملكت قلب محمد ، والتى احتل فى سبيلها صنوف الأذى والعذاب ، والتى هى عنده أساس الخلود ،



ووسيلة الحياة الأخرى ، أكان ينتظرهم في المدينة حتى يأتوا إليها فيقتلوه ؟  
لو كان مطلبه متعلقا بشيء في النفس من متاع الدنيا ، لأمكن أن نلاحظ على  
ما بيننا وبين أولئك الكتاب من خلاف وجهة نظرهم ، ولكن أمر محمد لم  
يكن شيئا من هذا في قليل أو كثير .

لقد كان محمد أبعد الناس نظرا وأرجحهم عقلا ، فمنذ أن وصل إلى  
المدينة أخذ في اعداد العدة لحماية الدعوة من قوم لا يحترمون غير القوة ،  
ولم يفلح فيهم النصيح ثلاثة عشر عاما .

نظر بشاقب فكره في وسائل الدفاع عن النفس والصحب ، فأحسن  
ابتكارها وأحسن استعمالها وانهى إلى النصر الذي تقول في صاحبه دائرة  
المعارف البريطانية : انه النجاح الذي لم ينل مثله مصلح ديني في زمن من  
الأزمان .

ذلك النجاح المقطيع النظير لم يبدل من حالة محمد في نسكه وتعبده ،  
وزهده وتواضعه وتياسره ، وبره ورحمته ، ومظهره ومخبره ، ومطلبه وغايته ،  
بل بقى الدعوة غالبية في المدينة كما كان والدعوة مغلوبة في مكة .

فعظمته عندنا هي في ملكه ، وفي نبوته ، وفي ملكه برهان آخر على  
نبوته ، فانه يقف وحده في تاريخ الفاتحين ناسكا فقيرا زاهدا أوتى كل  
السلطان ، ثم يموت لا يوصى لأحد بعده ، ويجرم ذريته وأهله الأوفياء ،  
لا من الملك الذي شاده وحده ، بل مما يرث الناس عادة ، ويقول : نحن معاشر  
الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة .

يذكر في صلاته ، وهو بكامل العافية شيئا من تبر في بيته ، فيسرع  
فيها ، ويدخل البيت ، فيخرجه ويوزعه ، خاشيا أن يدركه الموت وله شيء  
من الدنيا .

ويدخل مكة فاتحا ، فيضع رأسه ويضطأطئه على ناقته وهو يسير ،  
وأعداؤه على الهوان والعجز ، ويخشى أن تحدثه نفسه من العجب أو الغرور .

والحق الذى لامراء فيه أن محمداً فى حياته بالمدينة ، وبقيادته للأمة وتولييه الحكم ، أدى الرسالة التى اختصه الله بها أحسن أداء ، فأرانا بالفعل لا بالقول ماذا يجب أن يكون عليه الحاكم فى كل المناسبات والأحوال ، والناس محتاجون للحاكم وللدولة مادامت الحضارة بل مادامت الدنيا .

فلو أنه قضى ولم تبرز لنا هذه الناحية ، لما كان المثل الكامل الذى سعد الناس به ، ولو كانت المواعظ وحدها كفيلاً بالاصلاح ، لوجد الناس فى الكتب ما يغنى عن المصلحين .

ولكن هى الأمثال تضرب ، والأقوال تطبق ، والعين ترى ، والأذن تسمع ، والحنى يشارك الفكر .

هو ذلك كله الذى يطبع الناس بالمثل الصالح ، ويحرك البشر الى الجهود النبيلة الماثرة ، ومحمد لهذا كما يقول : ( بوزورث اسميث ) أكبر المصلحين على الإطلاق .



فى هذا الحديث رد موجز على بعض كتاب الملل الأخرى ، الذين أرادوا أن يصوروا محمداً فى شخصيتين : مكية ومدنية ، وبيان لخطأ هذا التصوير . والآن أنتقل الى قصدى من الحديث ، وهو بيان ناحية من نواحي الرسول فيها درس كامل ، وفيها ضياء يكشف لنا عن الأخلاق السامية ، التى كانت موضع الفصول السابقة ، بل فيها صور لا تقرب من وصف محمد للناس الا بمحاولة اخراجها .

جاء صلى الله عليه وسلم الى يثرب ورفيقه أبو بكر بعد سفرة شاقة ، وخوف زلزلت له نفس صاحبه ، جاءها لاجئاً يطلب لنفسه وصحبه الأمن فى جوار أهلها ، فما استقرت به النوى حتى لحظ بشاقب بصره حاجتها الى السلام ، والى التنظيم الداخلى ، وحاجتها الى الأمن الخارجى .

جاء بنرب ( التى سميت مدينة النبی فیما بعد ) والأوس (١) والخزرج (٢) فیها قریبا عهد بوقعة بعث (٣) ، والعداوة القديمة بینهما تثیر الأحداث الجدیة ، والیهود یذکون نار الفتنة ، ویخشون سوء المنقلب اذا ما اتحدت الأوس والخزرج .

جاء الى المدينة وأصحابه الذین هاجروا إليها لیس لهم فیها حول ولا قوة الا حصول اللاجئ المستظل بجوار قوم لا یحبون أهله وعشیرته ، فاستقبل من المسلمین بحماسة عظیمة ، ومن الیهود والمشرکین ببشر لا بأس به . هؤلاء بأملون أن یصلح الله به ذات بینهم ، وأولئك یطمعون فی استخدام العربی الخارج علی الأوثان ، المتودد لأهل کتاب ، للاعتزاز علی العرب من ناحية ، ومقاومة النصرانیة فی الشمال من ناحية أخرى . فكان مرکزہ لذلك علی جانب عظیم من الدقة ، عرضة لانتکاس الیهود والمشرکین ، كما هو عرضة لبغی مکة ، وشرها المستطیر .

فلننظر کیف تناول الموقف بحکمتہ ؟ وبرهن علی أنه أهل لكل جلیل من الأمر ، لیس بما اختصه الله به من الوحی فقط ، بل بما أوتیه رجلا فی ذروة الانسانیة ، من حسن التدبیر وکمال العقل .

شرع فی الحال فی بناء المسجد ، وما هذا المسجد ؟ فیہ كانت الأساس التى وضعها لصالح الدین والدنیا ، وأصبح معبدا و ( برلمانا ) ومقرا للمسلطة التنفيذية ، ومركزا للقیادة العلیا ، منه تصدر الدعوة الى الله ، والشرائع لخلقہ ، وجميع الخطط والتدابیر الاداریة والسیاسیة والعسکریة ، وفیہ تستقبل الوفود ، ویلقن العلم .

كان المسجد علی سذاجة بنائه وأثاثه ، وعلی قلة الأوضاع فیہ ، یتناسب کل التناسب مع تیاسر محمد وأصحابه وانصرافهم للجوهري من الأمر ویذکر

(٢٤١) انصار النبی من أهل المدينة هم قبیلتا الأوس والخزرج . ابنا قیلة ، وهی أهمها ، نسبا إليها وهما ابنا حارثة بن تعلبة من الیمن .  
(٣) یوم بعث بضم الباء : یوم معروف كان فیہ حرب بین الاوس والخزرج فی الجاهلیة ، وبعث اسم حصن للأوس .

الناس في كل حين بهذه الحقيقة ، وهى أن الانقلابات العظيمة ، وأن النجاح فيها أثر لهذه السهولة التى تعنى بالروح والخلق ، لا بالافتنان فى الأوضاع ، والاسراف فى المظاهر .

ومن هذا المسجد الصغير نمت تدريجيا الادارة الاسلامية الى أن شملت الجزيرة كلها ، ودانت الروم والفرس لها ، وفى هذا المسجد اتخذت تدابير قد تكون مما استلزمته أسباب مؤقتة ، وأحوال طارئة ، ولكنها بما انطوت عليه من الحكمة السامية ، وما صدرت عنه من الادراك ، كانت بذورا لأوسع الادارات الامبراطورية وقواعد لأكبر اصلاح بشرى .

من هذه التدابير ظهرت يثرت وطننا لأهلها ، لا مسكنا لأقوام متنازعين فيها ، وطننا آمنا للمسلمين والمشركين واليهود ، وللنازحين اليها من أية قبيلة كانوا ، ولأى عنصر اتسبوا ، عربا أو عجماء .

فظهر لأول مرة معنى الوطن ، تتساوى الناس فيه تحت نظام يعطى حقوقا ويلزم تكاليف ، من غير نظر الى الأحساب والأنساب والعصبيات والعقائد .

انظروا اليه صلى الله عليه وسلم يضع دستور الوطن الجديد فى صحيفة بين أهل الأديان والأجناس ، تجعلهم جميعا وطنيين مكلفين بالدفاع عن الوطن أمام أى اعتداء عليه ، متكافلين فى الحرب والسلام ، لا ينصرون غيرهم ولا يمالئون على أهل الوطن ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم ، وتكفل حرية العقيدة لأهل الوطن ، وحرمة أموالهم ودمائهم وأعراضهم .

تبتدىء الصحيفة هكذا : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من محمد النبى صلى الله عليه وسلم بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم ، ولحق بهم ، وجاهد معهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس .

ثم نقرر أن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ، ولا متناصر عليهم ، وأن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ،

وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم ، ثم تقرر لبقية اليهود المعاهدين ما ليهود بنى عوف ، ثم تذكر الصحيفة أن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الاثم ، الى أن تقول : وان يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وان الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار حرمة الا باذن أهلها ، وأن ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده ، فان مرده الى الله عز وجل والى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بهذه الصحيفة انقادت الى النبی سلطة يشرب الزمنية دون قصد ، فقد اقتضت العهود أن تنص على حكم في حالة الخلاف ، ولم يكن الا هو ليحكم ، ومنذ تلك الساعة وضع الحجر الأساسي لدولة الاسلام .

ففضى رسول الله على الفوضى ، والاباحة للقوة ، وجعل لأول مرة في البلاد العربية حق الأمة فوق حق القبيلة ، وجعل مرجع اقامة الحدود الى الله . أى الى شريعته ، والى رسوله منفذ هذه الشريعة ، وكانت الى ذلك الحين تتولاها القوة العاشمة وحدها ، قوة العصبية لا تفرق بين المذنب والبريء ، وبذلك غرس لاجيء الى يشرب بذرة الحضارة في أشد الأقوام نزوعا الى الاختلال والهمجية ، ووضع نواة الامبراطورية التى أزهرت قرونا طويلة ، ولا تزال فخر المشرق ، وحديث المغرب .

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم بما أوتى من العقل الراجح ، أن النظام الذى يريده ليثرب أولا ، وللعالم أخيرا لا تكفله صحف الدساتير وحدها في قوم غلاظ ، سراع الى الفتنة ، شديدي التمسك بالعصبية ، بل لابد من القوة لحماية الدعوة ، وصون النظام الذى وضعت قواعده في هذه الصحيفة ، وما تبعها من عهود صارت في مجموعها دستور الوطن الجديد ، هذه القوة لا تكون الا في سواعد المؤمنين الذين هجروا وطنهم الى الحبشة والى يشرب ، فرارا من النظام العتيق ، وخروجا على دعوة الجاهلية والعصبية ، فهم حماة

عهد الحرية والنظام ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من هؤلاء المهاجرين كان الفوج الأول من الجيش المسمى ، ومن الأنصار كان الفوج الثانى ، فهم المنطوعون الذين صادفت الدعوة من نفوسهم موقع القبول والبشر ، فلم يكن هناك سند للحرية والنظام الجديد غير المهاجرين والأنصار من بطون قريش وقبائل أخرى بينها من المنافسة ما بينها . والأنصار هم خصوم قريش ومنافسوها ، وقد كادت كذلك العداوة والبغضاء التى بين أهل المدينة تقضى على وجود الأوس فيها قبيل وصوله صلى الله عليه وسلم .

فتأليف هذا الجيش من المهاجرين والأنصار ، ومزجه ، وتدريبه ، وتربيته حتى يكون وحدة متماسكة ، غايتها نصر الدعوة ، ووسيلتها الطاعة والنظام ، وعدتها الايمان ، هو العمل العظيم الذى برزت فيه صفة رسول الله العسكرية . ومن أبطال هذا النوع من الفاتحين السابقين واللاحقين فى المدينة ، وبعد مضى ستة أشهر فقط من وصوله اليها ، أخذ يعد هذا الجيش ويهيئه ، حتى اصطدم به بعد سنتين فى بدر مع قوة تفوقه فى العدة ، وفى شهرة صناديدها ، كما تزيد على ثلاثة أمثاله فى العدد ، فرأى الناس معجزة النظام والتدريب . ومنذ هزيمة بدر لم تقم للوثنية قائمة ، ولا وقف الجيش المسمى حتى بلغ قلب فرنسا ، وقلب الهند .

رأى هذا الخليط من أتباعه فى يشرب عرضة لدعوة العصبية ، فدعاه الى التآخى وجعل للرجل من قريش أخا من الأوس ، وللآخر أخا من الخزرج ، وما زال يؤاخى بين هذا وذاك ، ويعقد بينهم أواصر أخوة فى الله ، حتى شمل القبائل والبطون ، ووصل بهذا التآخى فى العقيدة الى مقام أسمى من أخوة الدم ، فقدمه عليها ، وجعل الميراث للأخ فى العقيدة ، دون الأبناء والآباء من غيرها .

هذه المؤاخاة التى تجدون حديثها فى كتب السير مطولا ، وفيها تفصيل الأسماء والأنساب ، هى أساس الأمة الاسلامية ، وأساس النصر فى كل مواقع الاسلام فيما بعد .

وقف أبو سفيان ينظر الى جيش محمد يوم الفتح ، فكلما مر فوج قال : من هؤلاء ؟ فيقال : سليم أو مزينة أو غيرها ، وهو لا يعبأ بهم ، حتى لاحت الكتبية الخضراء من هؤلاء الاخوان ، فقال للعباس : ومن هؤلاء ؟ قال المهاجرون والأنصار ، فقال أبو سفيان : ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة والله يا أبا الفضل ! لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيما .

هذه الأخوة في الله التي قضت على عرف القبيلة ، وعصبية الجاهلية ، والتي تعهدا رسول الله بعنانيته ، أخرجت الأمة العربية من الاختلال والتشتت الى حياة الوحدة والنظام ، وهيأت ( للامبراطورية ) الاسلامية مكائنها التاريخية .

كان محمد صلى الله عليه وسلم رجل جد ، بصيرا بالعواقب ، شديد اليقظة ، دائم التفكير ، علم أنه لا يكفي لأمن يثرب أن يضع لها دستورا يكفل الحرية والتعاون بين مسلميها ويهودها ومشركيها . ولا يكفي أن يؤاخي بين أنصاره المؤمنين لكي يكفل النظام الداخلي في المدينة ، ما دامت المدينة كلها كالجزيرة في المحيط ، لاتصل الى ناحية من النواحي الا باذن المشركين وتسامحهم ، وهي في هذا المحيط الذي تتولى زعامته الدينية قريش . أضيع منها قبل هجرته اليها ، اذا لم تعترف قريش والعرب لها بالوجود وتوادعها . ولننظر كيف أخذ يعالج هذا الخطر ، ويجعل من المدينة الضائعة المحصورة قاعدة الجزيرة العربية ، ثم عاصمة الامبراطورية في بضع سنين .

كان في المدينة على مفترق طريقين : طريق يريده له بعض كتاب الملل الأخرى ، وبعض قصار النظر ممن يحلو لهم الكلام ، ويعجزون كل العجز اذا اعترضتهم عقبات الحياة ، وسخافات البشر ، وسنن الوجود ، وطريق آخر هو الذي سلكه لأن الله أرشده وأعد له ليكون المثل الكامل في القول والفعل . أما الأول فهو الطريق السلبي ، وأما الثاني فهو الطريق العامل ، ففي الأول كان عليه أن يكتفى بالاقامة في المدينة كما كان في مكة واعظا ومرشدا ، معولا على حماية من عاهدوه من أهل المدينة ، منتظرا ما تفعل قريش ومن

حول يشرب من الأعراب فإن أحسنوا وتركوه فى عزلته كان لهم الفضل ، وإن جاءوا فقصوا عليه ، كان له أجر الشهادة ، ولهم فخر النصر .. وأما الطريق العامل ، فهو أن يدرك هذا الخطر ، ويعمل على منعه ، ويقوم على دعوته ، مناضلا مجادلا مجاهدا حتى يفوز بغايته ، ويضمن للذين آووا ونصروا والذين هاجروا معه ، السلامة والعزة .

لم يكن محمد من الوعاظ الذين يملأون على الحياة يلقون الى الدنيا كلمة الخير ، ثم لا ينظرون : أذهبت مع الريح أم بقيت ؟ فهو بمقتضى رسالته ومروءته ورجولته الكاملة شخص آخر ، هو الجد فى صورة رجل ، والايمن العامل الراسخ ينسف الباطل نسفا .

ما جاء المدينة ليبنى صومعة ، ويسأل المشركين واليهود حمايتها ، فلم يكن بمقتضى طبعه ومناسباته يستطيع أن يسلك السبيل السلبى الكلامى دون أن يصل به الى الاخفاق المحقق .

نصر بعض أهل المدينة محمدا إيسانا به ، ووافقهم المشركون طمعا فى الاعتزاز على مكة ، وتحويل تجارتها الى سوق يشرب ، وكان فى المدينة اليهود يعتقدون أنهم شعب الله المختار ، وأنه لا يختص بالنبوة أحدا غيرهم ، ويطمعون فى أن يعتزوا بمحمد على العرب ويؤيدوا به دعوتهم .

وفى المدينة المهاجرون أصيبوا بحمى يشرب من أول حلولهم فيها ، وتشاءموا من عقم نسائهم ، حتى أن امرأة الزبير لما ولدت كان نفاسها عيدا ، وصحبهم الفقر بعد أن تركوا أموالهم فى مكة ، ذلك هو الأمر الذى لا مخرج منه الا بالجد والعمل ، ورسول الله قد برهن فيه على فيض من العقل وحسن السياسة ، لم يؤت مثله مصلح ولا فاتح فى زمن من الأزمان .

\*\*\*

فيما سبق وصف موجز لحالة المدينة ، وبيان باختصار لآمال اليهود ، وأطماع المشركين ، وحركة المسلمين ، وأنه لم يكن أمام الرسول مخرج الا



بالجد والعمل الحاسم . والآن ننظر في حالة مكة والمشركين حول المدينة ، ليتبين فضل حسن السياسة والحزم في التغلب على ما يشبه المستحيل .

يظن أن مكة قرية بائسة ، محرومة ، في واد غير ذى زرع ، وقليل من يعلمون أنها في وقت ظهور الدعوة الاسلامية كانت من أغنى القرى ، بل كانت سوقا من أربح أسواق التجارة في العالم القديم ، وكانت قريش فيها من أعظم التجار همة ، وأخبرهم بحال من حولهم من الأمم . ولعل الموقع نفسه ، والحرمان الطبيعي ، هو الذى حفزهم ، وضاعف نشاطهم ، فساحوا في الأرض ، وابتغوا فضل التجارة ، ألم نسمع بمغامرات فينيقية في التاريخ القديم ، وبريطانيا في التاريخ الحديث ؟ أليس سر نجاح هذه الأمم هو في عجز أوطانهم عن تقديم حاجات الحياة ، مما دفعهم الى المغامرة وطلب الرزق في أسواق العالم ، فصاروا أغنى أهل الأرض ، في أفقر بقاع الأرض ؟ كذلك كانت مكة وقت ظهور الدعوة المحمدية : كان أهلها فى بسطة من الرزق ، ومتاع بكل مالد وطاب من منتجات العالم القديم .

يقول البجائه « اسبرنجر » ان صادرات مكة في وقت الهجرة لم تكن تقل قيمتها عن خمسين ومائتى ألف دينار من الذهب ، والدينار خمسة عشر فرنكا ، أى نحو ثلثي الجنيه المصرى .

فاذا ذكرنا ارتفاع قيمة المعادن النفيسة في ذلك الزمن ، وذكرنا أن « اسبرنجر » انما يقدر قيمة الصادرات وحدها ، أدركنا مقدار البضائع التى تنبادلها مكة ، وهى وسيط بين اليمن والحبشة ، والامبراطوريتين الرومانية والفارسية ، وكانت هذه التجارة الواسعة غير محصورة في بيت أو فريق من الناس ، بل تجدون في كتب السيرة أن أبا سفيان حين أحس الخطر على القافلة قبيل بدر ، استنهض مكة كلها فخرج اليه ألف من المقاتلة ، معها مائة من الخيل ، وسبعمائة من الابل ، ولما أصيبت قريش فى بدر تبرع أهل مكة بقافلة أبى سفيان كلها ليعدوا بها للانتقام من محمد وأصحابه وقد كانت أرباح مكة من هذه التجارة الواسعة تقدر بخمسين فى المائة من رأس

المال مما أتاح لها حياة من البذخ تلحظونه في كرم أهلها وهم يضيفون حاج الجزيرة كله ، ويسرفون في اللهو بالخمر والميسر والقيان والطرب .

أما حالة النبي وأصحابه بالمدينة فقد مر في بعض الأحاديث ما يكشف عنها . فالمهاجرون وقد صودرت أموالهم ومساكنهم في مكة ، جاءوا المدينة وليس لهم من الدنيا غير إيمانهم ، فهذا ابن عمير لا يجد ما يتستر به ، وهذا على بن أبي طالب يطل من ثقب الباب على يهودى يعمل في بستانه ، كلما نزع دلو نال ثمرة حتى نال حفنة . وهذا رسول الله يخرج الى المسجد فيجد أبا بكر وعمر ، فيقول : ما أخرجكما ؟ فيقولان : الجوع ، فيقول : وما أخرجنى الا الجوع . فاذا ترك الرسول مكة تنعم بما هى فيه ، وتسمع بما هم فيه ، أ يكون ذلك مؤيدا لاتتشار الدعوة ، وخذلان الشرك ؟ كلا ، فان قريشا كانت تجعلهم مضرب الأمثال ، وموضع السخرية ، تمر على المدينة بمتاجرها وعزها ، تستهوى الضعيف ، وتفتن البائس ، ثم تبطش انتصارا لهبل ، وتترضى بأذى المسلمين اللات والعزى .

لقد كان محمد صلى الله عليه وسلم أصدق لرسالته ، وأبر بأصحابه ، وأسمى همة ، وأعظم شجاعة من أن يستكين ، وأن يقيم على هذا الهوان ، فشرع فى الحال يتهيأ للعمل الحاسم ، يرد به قريشا الى رشدها ، باصابتها فى أعز شئ لديها ، وهو تجارتها ، ويرد الأعراب عن ذلك الحصار ، الذى يجعل من الشرك نطاقا حول المدينة ، ويؤمن المدينة نفسها من الفتن التى يثيرها اليهود بين أوسها وخزرجها ، وبين المشركين والمسلمين عامة .

تلك أغراض ثلاثة لا بد لادراكها من القوة ، وخلق هذه القوة وتنظيمها ، والاستعانة بها على أسمى المقاصد ، هو عمل امتاز به محمد صلى الله عليه وسلم على من سبقه من الرسل . وذلك الدور فى تكوين المدينة وتدريب المهاجرين والأنصار ، والخروج بهم على الناس جميعا ، هو من أدق ما امتحن به محمد مصلاحا ، ورجل دولة ، وفيه تجلى له من حسن الذوق السياسى والعسكرى مالا يضاهيه الا أخلاقه الفاضلة .

## أثره في التربية العسكرية

بعد وصوله صلى الله عليه وسلم الى المدينة بستة أشهر فقط عقد أول راية في الاسلام لعبد الله بن الحارث بن المطلب ، ثم أخذت سراياه وغزواته تتتابع ، وبالرغم من أن كل هذه السرايا قبل بدر لم تدرك غرضا من الأغراض الظاهرة من قريش ، فانها أدركت أغراضا سياسية وعسكرية كان لابد منها لتثبيت الحكم ، وظهور الدولة ، فقد أحييت آمال المهاجرين ، ورفعت حالتهم المعنوية ، ونشطت أبدانهم التي كانت دائما غرضا لحمى يثرب ، كما عودت المسلمين العمل المشترك في قيادة موحدة ، ليس للأحساب والأنساب سلطان فيها ، ولا للقبيلة والعصبة علاقة بها ، بل ان هذه الحركات العسكرية المستمرة هي التدريب الدائم ليوم الفصل .

وقد علمت المدينة من هذه الحركات العسكرية أن محمدا جاد في مقاومة القوة بالقوة ، وعلم الأعراب أن الرجل الذي يخرج بسراياه ليتعرض لقريش ، ليس بالذي يغمز جانبه ، أو يباح حماه ، ولو علموا فيه ضعفا لتناولوا على المدينة ، وجعلوا من نهب حيوانها وقتل رعاته ، حديث فخرهم ، وأناشيد نسائهم .

وكذلك علمت قريش أن محمدا وأصحابه الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، صاروا في المدينة أخطر على حياتها الاقتصادية ، وان ظنتهم أقل خطرا على حياتها الدينية ، وفهمت أنه الآن يصادرها في أعز شيء لديها ، وهو التجارة ، كما صادرتها في أعز شيء لديه ، وهو العقيدة ، فان كانت تريد حرية التجارة فلا بد لها من الاعتراف بحرية

العقيدة ، وهو ماوصل اليه في معاهدة الحديدية بعد تلك الحوادث الدموية في بدر وأحد والأحزاب .

دامت هذه التدريبات العسكرية نحو سنتين ، فلما أحس النبي صلى الله عليه وسلم في أصحابه القدرة على قبول معركة ترفع مقامهم في نظر العرب كافة ، لم يتردد في التقدم لها ، فنزل بدرا ، وانتظر فيها قريشا ، فجاءته في العدد والعدة ، في ألف مقاتل بأحسن أسلحة العصر ، ومائة فارس ، وسبعمائة بعير .

وكان هو في قوة من أربعة عشر وثلثمائة راجل ، سلاحهم السيوف ، ومعهم ثلاثة أفراس ونحو سبعين بعيرا .

أراد أن يطمئن الى حسن استعداد أصحابه للقتال ، فسألهم الرأي ، فأما المهاجرون فتكلموا وأحسنوا ، حتى قال المقداد بن عمرو : امض يارسول الله ، فوالذي بعثك بالحق ، لو سرت بنا الى برك الغماد (١) لجالدنا معك من دونه حتى نبلغه ، فشكره رسول الله ، ثم قال : أشيروا على أيها الناس — يريد الأنصار — لأن يبعثهم له كانت على أن يمنعه مادام في ديارهم ، فكان يتخوف أنهم لا يرون نصرته الا على من دهمه في المدينة من عدوه ، وليس عليهم أن يسير بهم الى عدو خارج ديارهم . فقال سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يارسول الله ؟ قال : أجل ، فقال سعد : قد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا وموآثيقنا ، على السمع والطاعة ، فامض يارسول الله لما أردت ، فنحن معك ، فوالذي بعثك بالحق ! لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا العدو غدا ، انا لصبر في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ... فسر عليه الصلاة والسلام بقول سعد ، وقال سيروا وأبشروا ، فان الله قد وعدني احدي الطائفتين ، والله لكأنني أنظر الى مصارع القوم ١٠

(١) موضع باليمن ، وهو بضم الفين وكسرهما .

هذا هو روح الجيش قبيل بدر ، يعبر عنه رجل من المهاجرين ، وآخر من الأنصار ، نفوس صاغها الايمان ، وصقلتها الطاعة والتدريب والنظام ، وذلك هو عقل بطل الأبطال يتجلى في المشورة والأدب والوفاء . أما المشورة ففي ترديده : أشيروا على أيها الناس ، وهو يعلم أنه لو خاض بهم البحر ، أو اجتاز القفر ، ماخالفوه ، وأما الأدب والوفاء فهو استئذانه الأنصار قبل أن يعرضهم لحرب لم يبايعوه على مثلها من قبل .

فلما خاض المعركة انتصرت القلة في العدد والعدة ، على الكثرة ، والفريقان عرب وشجعان ، وانما رجح جيش محمد كل هذا الرجحان بأمرين ظاهرين : الأول النظام ، والثاني احتقار الموت . وشهد الناس في بدر معجزة ذلك النظام حين أغارت خيل المشركين على الصفوف المرصوفة ، فلم تحركها من مكانها قدما واحدة ، وارتدت عنها حائرة ، اذ رأت ما لم تسمع به من قبل ، ذلك أن للخيال اذا أقبلت في زحفها مغيرة رهبة يعرفها من مارسوا الحروب ، وقلما تثبت لها الراجلة . شهد الناس في بدر ثلاثمائة رجل رباهم محمد ونظمهم ، يستفتحون الجهاد في سبيل الله على الأحمر والأسود والأبيض ، فتفتح لهم الأرض ، فعلم الناس منذ يوم بدر ما للنظام واحتقار الموت من قوة ، كما رأوا بعد في الخندق كيف يمكن قوما أحبوا الحق أكثر مما يحبون الحياة أن يردوا الأحزاب عن مدينتهم ، وبأن كذلك كيف يرجح النظام على العدد والعدة .

ففي وقعة الخندق أو الأحزاب ذر (١) قرن النفاق ، ونقض اليهود عهد رسول الله ، وجاء العدو المدينة من فوقها ، ومن أسفل منها ، وزلزل المسلمون زلزالا شديدا ، ولكن التدريب المحمدي للكتائب المرصوفة ، وتلك القيادة الماهرة التي لا تخرج بشيء ، ولا تضيق ذرعا ، وذلك العقل الخصب ، قد أتم بالرأى والحيلة ما بدأت الشجاعة والصبر ، وانصرفت الأحزاب عن المدينة في ظلام الليل ، يركب زعيمها ناقته فيسوقها ولما يفك عقالها ، فتقوم على ثلاث .

(١) طلع .

تلك القيادة المحمدية الماهرة ، هي التي أفتتذت المدينة كذلك من قبل فى أحد ، فسارعت ، ولما يفق الجيش من صدمته ، الى الحركة والظهور للعدو بمظهر الطالب له ، المتقدم اليه ، ولولا هذه المسارعة التى لا تكون الا للنظام والطاعة ، لدهمت قريش المدينة ، وقضت على بقية جيش المسلمين فيها . تلك القيادة الماهرة لجند مدرب ، هي التى جعلت قريشا تتراجع ، والمهزومون بالأسى يتعقبون الذين انتصروا عليهم .

هذه بعض مثل نعرضها موجزة ، وتجدون تفصيلها فى كتب التاريخ ، ليتبين قدر محمد صلى الله عليه وسلم رجل دولة وقيادة ، وما أوتى من حسن السياسة ، وحسن القيادة ، ولتتجلى لطلاب الحق ذاته الجامعة .

ومن العجيب أن هذه التدريبات العسكرية ، والواقعات والحروب والمكابد والحيل والرأى والتدبير الذى أشرنا الى شىء منه سابقا قد أخرج الدولة المحمدية ، التى صارت أساس أعظم الامبراطوريات فى تاريخ البشر ، من غير أن تكون مقصودة لذاتها ! وانا لنكون مقصرين نحو الحق التاريخى ، ونحو ما نعتقده نتيجة للبحث ، اذا تركنا الناس يتوهمون أن الدولة كانت غرضا أصليا للرسول صلى الله عليه وسلم ، بل الواقع أنها جاءت عرضا ، ووجدت كوسيلة صالحة للغرض الأول ، وهو القضاء على الشرك ، واحلال الايمان بالله وحده محل عبادة الأوثان ، فان مكة لما بالغت فى القسوة وأسرفت فى اضطهاد المسلمين ، نفذت كل مساعى الرسول السلمية فى أن يجد للعقيدة الاسلامية حياة حرة ، وللدعوة مجالا طليقا ، فلجأ الى دفع القوة بالقوة مطالباً بحرية الأديان كلها : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله » .

كان كل هذا الصراع المسلح يرمى الى شىء أساسى واحد ، وهو تقرير حرية العقيدة فى أشد الأقوام همجية ، فظهرت صفات بطل الأبطال فى التنظيم.

وبناء الدولة كما ظهرت من قبل خارقة في الثبات على المبدأ ، والصبر على  
الأذى ، وبيان الحجة ، واستقامة الوسيلة ، ووضوح الغاية .  
وستتحدث فيما بعد عن الحرية الدينية ، وكيف كانت هي الغرض  
الحقيقي لسياسة بطل الأبطال في المدينة .





## النامية العسكرية في بدر

قد يكون من المفيد أن نخص معركة بدر ببعض ما تستحقه من افاضة الحديث لما لها من الأثر الحاسم في تاريخ المسلمين العسكري ، ولا أستطيع أن أصف المعركة في بدر دون أن أشير الى الحالة العسكرية في الجزيرة قبل بدر ، وما صارت اليه بعد بدر .

لقد كان العرب على علم تام بضروب القتال كما هي الحال في العالم في ذلك العصر ، فكانوا يعرفون فنونه وأدواته كما تعرفها الأمم المحيطة بهم ، وكانت قريش بين العرب ممتازة بالثروة والرحلة والاحاطة بما يحدث في العالم أكثر من غيرها من القبائل العربية ، كما كانت تتمتع بالسيادة الدينية في الجزيرة ، وتتمتع بتجمع قواها في مكة ، مما يمكنها دائما من سرعة الحشد والتعبئة . لكل ذلك آلت اليها القيادة العسكرية ، كما آلت اليها القيادة الدينية ، فكانت مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم انتزاع هذه السيطرة من قريش ، لينزعها من الجزيرة كلها . ولم يكن من الممكن بعد تجربة دامت ثلاث عشرة سنة يدعو فيها الى دينه بالوسائل السلمية ، دون أن يصل الى حرية العقيدة بسبب سطوة قريش ونفوذها في العرب ، ألا ينازعها هذه السيطرة . فغزوة بدر لم تكن أمرا عرضيا ، ولا كان كل المقصود بها في الواقع مجرد الاستيلاء على غير قريش ، بل كان المقصود كذلك ضرب قريش في قوتها الحربية .

وقد أدرك الرسول أن أصحابه أصبحوا من النظام الذي بثه فيهم ، والروح المعنوى الذي سرى في نفوسهم ، من اجتماع الكلمة والفناء في

سبيل الحق ، بحيث يستطيع أن يلقي بهم سادة الجزيرة العربية في أول معركة منظمة . ولو لم يكن يعلم هذا ، وكان يخشى لقاء قريش مجتمعة ، لذهب الى طريق الشام يلقي غيرها ، وكان ذلك أهون عليه ، لأنه يلقيها في مكان أبعد عن مكة من المكان الذي لقيها فيه ، فهو اذن لم يقصد قافلة التجارة لذاتها ، ولكنه أحب أن يلقي معها جيش قريش .

تقدم الرسول الى بدر بكتيبة ليس لها من معدات الجيوش ما لقريش ، فقد كانت الخيالة فيها لا تزيد على فارسين في رواية ، وثلاثة فرسان في رواية أخرى ، ولم تكن لها دروع ولا سلاح غير السيوف ، بل لم يكن لها ما يكفي من الابل لحمل العتاد والرحال . هذا على حين كان لقريش العدد والعدة ، فكان عدد فرسانها مائة فارس ، وكان مشاتها ثلاثة أضعاف المشاة من أصحاب الرسول ، وكان معها من الابل ما يكفي لأن يذبحوا طعامهم عشرة كل يوم ، وكان كل ما يعرف من أنواع السلاح اذ ذاك متوافرا لها بسبب ثرائها ، واستعدادها الدائم للحرب وخصوصا هذه المعركة ، ولكن شيئا آخر عظيما كان متوافرا لأصحاب الرسول ، فاستعاضوا به عما كان ينقصهم من العدد والعدة ، أما هذا الشيء العظيم فهو أمور ثلاثة :

الأول : النظام ، فان التربية المحمدية سواء آكانت في صورة العبادة ، أم تلقين عقيدة التوحيد ، أم ارجاع الأمر الى الله مع حسن العمل ، أم الايمان بالمساواة في عمل الدنيا والآخرة ، أم ايثار الشهادة في سبيل العقيدة على الحياة وما يتعلق بها من أحوال الأهل والعشيرة ، وكذلك انطباع نفوسهم بطاعة الرسول وأولى الأمر منهم — ان هذه التربية أحدثت فيهم قوة جديدة لم يكن العرب يعرفونها من قبل ، تلك هي قوة النظام التي رجحت بها كنيية المؤمنين على جيش المشركين .

والثاني : القوة المعنوية التي ملأ بها الاسلام نفوسهم ، فانهم دون مشركي العرب كانوا يؤمنون بالبعث ، فهم لذلك لا يرون في الموت فناء

مطلقا ، بل يرون أن وراءه — مع ادراك فضل الشهادة — حياة أبقي وأسعد من هذه الحياة .

من أمثلة ذلك أن شابا في السادسة عشرة من عمره كان في كتيبة المؤمنين ، فلما سمع الرسول يحرض المؤمنين على القتال ويعدهم الجنة قال : اذن ليس بيني وبين الجنة الا هذه التمرات ؟ وهى تمرات كان يأكلها ، فقتلها ، وحمل بسيفه على المشركين ، فلم يزل يقاتل مستبسلا حتى لقي الموت الذى يريده .

والثالث : وحدة القيادة ، فقد كان المسلمون ممتازين بها ، يتفانون في الاخلاص والطاعة لقائدهم ، وذلك من الأمور التى ضاعفت قواهم .

ولنذكر لذلك ما حدث في أثناء المعركة ، اذا رأى النبی صلى الله عليه وسلم وهو يقوم الصف ، رجلا خارجا عن رفاقه في الصف ، فوكزه ، فقال الرجل : أوجعنتى يا رسول الله ، فأقذنى منك ، فكشف النبی صلى الله عليه وسلم عن بطنه وقال : اقتص لنفسك ، فقبل الرجل بطن النبی ، فقال النبی : ولم اذن ؟ قال أردت أن يكون هذا آخر عهدى بالحياة .

تلك أهم الأسباب التى استعاض بها المؤمنون عما كان في جيشهم من نقص العدة والعدد ، ولا تظنوا أن قريشا كانت خائرة فاقدة للنظام والقوة المعنوية ، فقد كان لديها أكمل نظام يعرفه العرب ، ولها من عزتها ، ومن حب المحافظة على سيطرتها العسكرية ، ومن الرغبة في الانتقام لحادثة نخلة وقتل ابن الحضرمي ، ومن العزم على الاحتفاظ بحرية التجارة وسلامة الطرق الموصلة لهذه التجارة ، ما جعلها تقاتل مستبسلة ، حتى ان رجلا منها أقسم أن يرد حوضا وسط جيش محمد ، فلما قطعت رجله قبل أن يصل اليه دفع نفسه الى الحوض ، وهدم جزءا منه برجله الأخرى ، ولما جرح أبو جهل مر به رجل من المسلمين وهو في حشجة الموت ، فوضع قدمه على عنقه ، وقال : أرايت كيف أخزأك الله ؟ قال وبهم أخزاني ؟ أعار أن أقتل ؟

من هذا تدركون عظم مهمة الجيش الاسلامى فى سبيل انتزاع السيطرة العسكرية التى كانت لقريش .

أما كيف وقعت المعركة نفسها ، فقد تقدم الجيش الاسلامى من الشمال الى الجنوب ، فلما وصل الى ساحة بدر كانت ميمنته سلسلة من التلال المرتفعة ، وكذلك على يسارته سلسلة أخرى أقل ارتفاعا .

وتقدم جيش المشركين ، وكان أمامه كثبان من الرمل تقع غرب وادى بدر ، وعلى يسارته أرض صخرية قليلة الارتفاع .

فى السهل الذى بين هذه الجبال وهذه الكثبان وقع أول تصادم بين القوتين ، وكانت الليلة التى سبقت المعركة شاتية ، فهطل مطر غزير فى ناحية قريش ، وكان أقل غزارة فى ناحية المسلمين ، جعل مهمة قريش فى التقدم الى ساحة بدر أشق من مهمة المسلمين ، ولما تقدموا فى الصباح استقبلت المشركين الشمس من المشرق ، وهم متجهون اليها ، فكانت من العوامل الطبيعية المؤذية لهم .

نشبت المعركة كما تنشب المعارك فى ذلك العصر ، بفرسان يتقدمون الصفوف ويتصارعون ، فتقدم ثلاثة من بنى هاشم ، ولقيهم ثلاثة من صناديد المشركين ، وفى دقائق معدودة فتك المسلمون بأندادهم ، فكان هذا استفتاحا حسنا للقتال ، وهنا أمر رسول الله بذلك الأمر الحكيم ، أمر الكتيبة الاسلامية أن تتراص وألا تتحرك من مكانها ، وأن تصد بالنبال خيل العدو وهى تأتيها من جوانبها . فرأت قريش لأول مرة كيف تثبت الراجلة أمام حملات الخيالة غير هيابة ولا مرتبكة ، وللخيالة كما قدمنا هبة عظيمة فى هجومها ، يعرفها الذين مارسوا الحرب وشاهدوها . حمى الوطيس ورسول الله يدعو ويحرض على القتال ، والمشركون على عديدهم وعدتهم واستبسالهم ، يحاربون قوما قد امتنعوا بسيوفهم ، وآثروا الموت على الحياة . انتهى الأمر بهزيمة المشركين ، فانطلق المسلمون فى اثرهم ، وأخذوا

فيهم ، لا يلتفتون الى نهب ولا سلب ، كعادة العرب في ذلك العصر ، حتى انقلبت الرجعة القرشية فرارا مخزيا ، وانكسارا غير مسبوق لقريش .

كانت قتلى قريش في هذه المعركة خمسة أمثال قتلى المسلمين ، وكان أسراهم مثل قتلهم ، ولكن ليس المهم في بدر عدد من دفنت من القتلى ، ولا عدد الأسرى ، ولا مقدار الغنائم ، وإنما المهم هو أن قريشا دفنت في وادى بدر سيادتها على الجزيرة العربية . وليس الأمر الخطير هو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رجع بأعدائه مكبلين الى يثرب ، وإنما هو أنه رجع بالسيطرة العسكرية وقد انتقلت من مكة الى المدينة .

رجع النبي الى المدينة وقد ثبت أن النظام العسكري الذي استحدثه هو نظام يفوق ما يعلمه أهل العصر ، فوضع في بدر قواعد الجيش الاسلامي ، وكانت هذه الكتيبة نواة له .

ومنذ بدر والاسلام ينتشر ، وجيوشه تسير الى المشرق والمغرب ، تطوى الممالك ، وتثل العروش ، وتتغلب على العقبات بأمرين : حب النظام ، واحتقار الموت ، ولا يزال هذان الأمران دعامتى النصر ، ولن ترجع للمسلمين سيادتهم الأولى حتى يقيموا حياتهم وجيوشهم على الأساسين اللذين وضعهما رسول الله ، واللذين مكننا له في بدر برغم العدة والعدد والبسالة التي كانت لخصومه .



## دفاعه عن حرية العقيدة

وقفنا عند بيان قصد الرسول من حركاته العسكرية ، ووقعاته مع المشركين ، وقلنا : ان الأساس هو الوصول الى حرية الدعوة ، بل اليها والى حرية العقيدة للأديان السماوية جميعا ، وقلنا : انه ليس أدل على هذا القصد من هدنة الحديبية بل ليس أدل عليها من القرآن نفسه ، انظروا الى هذه الآيات :

« أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله » فالأذن بالقتال معلل باضطهاد العقيدة ، ومصادرة حرية الناس في أن يقولوا ربنا الله ، وتلك هي الآية التي شرع بها القتال ، ثم هذه الآية « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فإن انتهوا فإن الله بما يعملون بصير » ففيها أيضا الأمر بالقتال معللا بمنع الفتنة ، وهي الاكراه على تغيير العقيدة ، فإن انتهى الأعداء عن هذا الاكراه ترك أمرهم الى الله ، وكذلك قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا » فالقتال هنا مبرر بالدفاع عن الحرية ، على أن لا يتجاوزها الى العدوان . ثم انظروا الى الآية الآتية كيف جعلت القتال مبررا بالدفاع عن حرية الأديان السماوية جميعا ، وجعلت الغاية منه أن يتمكن المسلمون من اقامة الصلاة ، والبر بالمساكين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز ، الذين ان مكناهم في

الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر  
ولله عاقبة الأمور » .

واضح من كل هذه الآيات غرض الاسلام من القتال ، وهو منع  
الفتنة واضطهاد الناس ، وردهم عن عقائدهم قسرا .

تلك الفتنة التى هى أكبر من القتل ، وأسوأ عاقبة من الحرب :  
« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير . وصد عن سبيل الله  
وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من  
القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم ان استطاعوا » . فغرض  
النبي كما هو جلى من القرآن ، هو الدفاع عن حرية العقيدة ، وقتال المشركين  
حتى يسلموا باحترام هذه الحرية .

ولما استقر لمحمد الأمر فى المدينة ، وصفت أحوالها ، وخلصت له ،  
وأدرك أعداؤه أن لا أمل لهم فى مهاجمتها ، ورجحت قوى الدولة على ما حول  
يثرب من المشركين واليهود ، كما استقرت هيئته فى نفوس القبائل ، وسار  
بحديثه الركبان فى جزيرة العرب كلها ، وأصبح تام السلطة على الطرق الى  
مكة ، فحصرها وقضى على حرية تجارتها ، وصار بذلك قريبا من وضع  
السيف فى غمده ، لحظ بثاقب نظره أن الساعة قد أتت لهدنة مع مكة ، فसार  
فى جيش من الأنصار والمهاجرين وحلفائهم وساق الهدى ، وأعلن أنه يريد  
الحج ولا يريد قتالا .

سمعت به قريش فخرجت لتصدّه عن البيت ، واستعظمت أن يدخل  
عليها هذا الدخول ، وأبت أن يتحدث العرب بأن محمدا طاف بالبيت ،  
وجاء مكة فى منعة من قوته ، فتحالفوا وتعاهدوا على ألا يدخلها عليهم أبدا ،  
وكان جيش محمد على تمام الاستعداد لاقتحام ديار المشركين اذا منعه فى  
الشهر الحرام ، من حق لجميع العرب ، وهو حج البيت ولكن محمدا  
صلى الله عليه وسلم كان يرغب فى شىء آخر ، فقد عقد العزيمة منذ خرج  
من المدينة على ألا يقاتل ، وجعل السلم نصب عينيه ، ومحمد صلى الله



عليه وسلم لا يرده عن عزمه شيء ، ولا يحوله عن مقصده أحد ، قد اجتمعت له العزيمة الصادقة والحكمة والأناة .

تلقى عنت قريش بالصبر ، فسلك طريقا وعرا بأصحابه حتى لا يصطدم بأعدائه ، وحتى يعطيهم فرصة للتفكير فيما هم مقدمون عليه ، وقال : لا تدعوني قريش اليوم لخطه يسألونني فيها صلة الرحم الا أعطيتم اياها . فلما نزل الحديبية في حرم مكة بالغت قريش في عنادها ، وأبوا الا أن يرجع بالهدى وقد ساقه ، وألا يطوف بالبيت وقد أحرم للحج والعمرة .

ولما أرسل من يؤكد لهم حسن قصده ، عقروا بعيره ، وهموا بقتله ، فاستمر في إفاد الرسل ، والنصح لهم فما ازدادوا الا طغيانا وكبرا ، وبعثوا رجالا ، وأمروهم أن يطوفوا بعسكر محمد ليصيوا لهم من أصحابه ، فأخذوا أخذاً ، وأتى بهم الى رسول الله ، فعفا عنهم ، وخلي سبيلهم .

أنتج هذا الصبر المحمدي نتيجته سريعا ، فعلمت العرب أنه لا يريد قتالا ، ولا يضر شرا ، وأخذ أحسن حلفاء قريش ينفضون أيديهم من اثمها ، وأعلن زعيم الأحابيش أنه لا يرضى عن صد الناس عن البيت ، وأنهم لم يحالفوا قريشا على شيء من هذا ، ونصح لهم اخوانهم من ثقيف بعدم التعرض لمحمد ، وأرهبوهم من بأس المؤمنين معه ودنت بذلك الغاية التي أرادها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى المهادنة واحلال السلم محل القتال ، فجاءه سهيل بن عمرو مفوضا من قريش ، ليصالحه على أن يرجع عامه هذا ، ثم يأتى في العام القابل ، فيحج ويقيم في مكة ثلاثة أيام ، بعد أن تخيلها له قريش .

شق على المسلمين أن يرجعوا ، ولكن الرسول قبل ذلك ، وجرت المفاوضات على هدنة عشر سنين ، فاشتترط قريش أن من يلجأ فى أثناءها الى محمد من غير اذن وليه يرده الى قريش ومعاهديها ، وألا ترد قريش وحلفاؤها من يلجأ اليها من أصحاب محمد .

فلما قبل الرسول هذا الشرط وثب عمر بن الخطاب ، فأتى النبي ، فقال : يا رسول الله ، أأست برسول الله ؟ قال : بلى ، قال : أو لسنا بالمسلمين ؟ قال : بلى ، قال : أو ليسوا بالمشركين ؟ قال : بلى ، قال : فعلام نعطي الدنية في ديننا ؟ قال : أنا عبد الله ورسوله ، لن أخالف أمره ، ولن يضيعني ! .

كاد الناس يهلكون مما دخل عليهم من أمر هذا الصلح وشروطه ، ورجوعهم عن زيارة البيت ، ولكن التربية المحمدية ، والعزيمة القوية التي أظهرها الرسول باصراره على إقامة السلم ، أقرت الأمور في نصابها . فلما جلسوا لكتابة العقد ، تجلّى صبره مرة أخرى ، فانه دعا على بن أبي طالب ، وقال له : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، فقال مفوض قريش سهيل بن عمرو : أمسك ، لا أعرف الرحمن الرحيم ، بل اكتب باسمك اللهم . قال رسول الله : اكتب باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمر ، فقال سهيل : أمسك ، لو شهدت أنك رسول الله ما قاتلتك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك ، قال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله ، وهنا يظهر انصاف محمد وسعة صدره ، ويتجلّى سر من أسرار عظمتة ، وهو قصده دائماً الى الجوهرى من الأمر ، واستصغاره للأشكال والمرسومات .

عقدت الهدنة ، ورجع المسلمون وهم كارهون ، ووسوس الشيطان في نفوس بعض الناس لما قبل الرسول شرط تسليم من لجأ اليه على ألا يطلب من لجأ الى عدوه ، وأن يرجع عن الحج كما أرادت قريش بعد أن أحرم له ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يشغله شيء الا الوصول الى حرية الدعوة في ظلال السلم ، ويعلم أن ذلك هو الفوز .

وبينما هم في الطريق نزلت سورة الفتح ، فسمى القرآن هذا الصلح البغيض فتحاً مبيناً « انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ، ويهديك صراطاً مستقيماً » . وقد تحقق بعد

صدق نظر الرسول ، ووعد الله ، فدخل الناس في دينه أفواجا ، ولم يمض سنتان على صلح الحديبية حتى دخل في دين الله أضعاف من دخلوا في السنوات العشرين السابقة فكانت هذه الهدنة التي أرادها الرسول على رغم أنف أصحابه ، ورغم أنف قريش وعنادها وعنتها ، بركة على الاسلام ، لم ير قبلها فتحا أعظم منها . وقد انقلب حتى ذلك الشرط البغيض من تسليم اللاجئين المؤمنين الى الكفار يؤذونه ويفتنونه الى الخير ، فكانت قريش بعد سنة من الصلح تحاول التخلص منه وأن يقبل محمد صلى الله عليه وسلم الغاءه ، وذلك أن بعض المستضعفين من المسلمين كانوا يلجأون الى النبي فيسلمهم ، وفاء بعهد ، فلما سلم أبا بصير فر الى جهة في ساحل البحر ، وصار يفر اليه أمثاله ممن لا يستطيعون الالتجاء الى المدينة ، حتى تكاثروا وقطعوا الطريق على تجارة مكة ، وعاد اليها البلاء وضجت ، واستجارت بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وسألته بصلة الرحم أن يؤوى أبا بصير واخوانه ، وأن يعفيها من ذلك الشرط ، ويدخل من يلجأ اليه في عهده ، فقبل ، وكانت هذه آية من آيات السياسة المحمدية ، وفضلا من الله على أخلص عباده .

قبل النبي رجاء أعدائه ، فأمن لهم تجارتهم ، وآثبت أنه لا يريد بالحرب الا تقرير حرية الدعوة ، وحرية العقيدة ، وأنه لا يريد نهب تجارة مكة ، ولا الانتقام منها كما يظن بعض كتاب الملل الأخرى .

فهو الذي كبح جماح جيشه ليقبل شرطا بغيضا في سبيل السلم عشر سنين ، في الوقت الذي تمت سيطرته على طرق المواصلات التجارية لمكة في الشمال ، بل كان في مكنته أن يتعرض لطريق الجنوب بين مكة والطائف . واستدعاء أبي بصير وصحبه ، وهو غير مسئول عنهم ، منعا بالسلم الذي أراد ، يبين فساد ما ذهب اليه هؤلاء الكتاب .

ولما اطمأن الى صلح يكفل له الأمن من ناحية قريش ، اتجه الى مكاتبة الملوك والعظماء في أنحاء العالم ، يدعوهم الى دينه ، ووجه حركاته العسكرية

الى الروم ، الذين أخذوا يقاتلون دعاة الاسلام ، ويضطهدون الدعوة  
المحمدية ، فكان صلى الله عليه وسلم بارعا ، بعيد النظر فى اغتنام أول فرصة  
لنقل ميدان الكفاح العسكرى بسرعة من قلب الجزيرة الى أطرافها ، فاستشعر  
العرب سمو مطلبه ، وبعد غايته ، وبذلك جمعهم تحت لواء القومية المتحدة ،  
فكانوا عدة صالحة لدعوته العالية .

سارع الى العمل ، وقد أدرك بثاقب بصره أن الدولة الرومانية لن  
تصبر على ظهور دولة للعرب بالمدينة ، وأنها سائرة اليه فى النهاية ، وأنه  
ما غزى قوم قط فى عقر دارهم الا ذلوا ، فنقل الميدان بسرعة مدهشة ،  
تدل على فطنة فى السياسة ، ودراية فى الحرب منقطعة النظير .

ومنذ أن غزا الروم فى مؤته ، وسهام العرب ، وآمالها تتجه الى غاية  
أسمى من الثأر والانتقام والنهب ، وحالتهم المعنوية تسمو من درك التناحر  
الأهلى الى مقام الكفاح العالمى ، لغرض أعلى من متاع الدنيا .

وهكذا تدرج محمد صلى الله عليه وسلم من العشيرة ، الى الوطن ،  
الى القومية ، الى الدولة العالمية ، فاتخذ لهذه الدولة العالمية العرب ، ونفخ  
فيهم من روحه ، وبعثهم بالرسالة للأكاسرة والقيصرة ، فحملوهم عليها ،  
وقامت دولة الاسلام ، لاتعرف عصبية ولا عنصرية ، ولا لونا خاصا ، ولا  
شيئا غير التقوى يستأز الناس بها . ومنذ أن انصرف الى الشسال بعد صلح  
الحديبية أدرك كل رجل ذى بصيرة من خصومه سواء أكان فى قلب  
الجزيرة أم فى أطرافها ، أن واجبه أن ينطوى تحت اللواء الذى رفعه محمد  
صلى الله عليه وسلم للأمة المشتتة المتناحرة المحترقة فى نظر جيرانها من الروم  
والفرس ، فسارع الى هذا اللواء خالد بن الوليد ، وعمر بن العاص بطلا  
قريش ، وبطلا الاسلام فيما بعد ، وسيدا مخزوم وسهم ، أشد بطون قريش  
عداوة لمحمد ودعوته ، فكان هذا فاتح العراق وبطل المشرق ، وذلك فاتح  
مصر وبطل المغرب .

نقضت قريش لقصر نظرها ، عهد الحديبية لما ظنت أنه تورط في قتال الروم ، فنصرت بكراً على خزاعة حلفاء النبي ، فسارع كما هي عادته بصدق عزيمة ، وحسن فراسة ، الى قبول نكثها للعهد ، ورفض تجديد العقد وعباً قواه ، وكنتم سره وتحرك في عشرة آلاف الى مكة ، فدخلها بغير حرب .

وأقول بغير حرب لأن المقاومة الضعيفة التي أبدتها عكرمة ، وصفوان ، وسهيل في الجهة التي دخل منها خالد ، لا تدل على شيء غير استسلام مكة . وعجز قريش التام .

وبفتح مكة توجت سياسة الرسول الحسنة ، وحكمته في تصريف الأمور بأعظم جزاء من الله ، واستقرت الدولة المحمدية في جزيرة العرب على أقوى الدعائم ، وأمنن الأسس ، ورجع البيت كما كان على عهد ابراهيم مقراً للتوحيد ، منزها عن الشرك ، قبلة للمعاكفين والقائمين والركع السجود لله وحده .



## مثل من سياسته

تكلمنا في الفصول السابقة عن حسن سياسته صلى الله عليه وسلم وحكمته في تصريف الأمور ، فتناولنا بعض دعائم هذه السياسة ، وخططها الرئيسية ، لتبين عظم هذه الناحية في ذات بطل الأبطال صلى الله عليه وسلم .

والآن نريد أن نسوق بعض الأمثلة من تصرفاته في بعض المواقف والحوادث الطارئة ، لتتجلى صورة الكياسة ، وسلامة الذوق ، وحسن التقدير ، ونكون بذلك قد أثبتنا على قدر جهدنا شيئاً من صفاته وأخلاقه ، يقرب الى الأذهان مثله الكامل .

وهاكم موقفه مع عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين ، وسيد الخزرج عقب وقعة بنى المصطلق (١) .

كان قوم عبد الله حين جاء النبي الى يثرب مهاجرا ، ينظمون له الخرز ليتوجوه ، فلما عظم شأن الرسول تداعى سلطان عبد الله ، وأضرم الشر ، وظهر ما في نفسه يوم بنى المصطلق ، والرسول في شغل بعدوه ، فكاد عبد الله يرسلها فتنة تحرم المسلمين ثمار نصرهم ، بل تذهب بريحتهم .

ذلك أن أجيروا لعمر بن الخطاب ازدحم على ماء مع رجل من حلفاء الأنصار ، فاقتتلا ، فصرخ الأجير : يا معشر المهاجرين ! وصرخ الآخر : يا معشر الأنصار ! فغضب عبد الله بن أبي ، وقال : أو قد فعلوها ؟ قد

---

(١) بنو المصطلق : من خزاعة ، وقد غزاهم النبي بالمريسيع في شعبان سنة ست .

نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدنا وجلايب (١) قريش هذه الا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك . أما والله لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعرز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم .. والله لو أمسكتهم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا الى غير داركم . فسمع ذلك زيد بن الأرقم ، فمشى به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده عمر بن الخطاب ، فقال : مر به عباد بن بشر فليقتله ، فقال صلى الله عليه وسلم : فكيف يامر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ، ولكن أذن بالرحيل ، فارتحل الناس فى ساعة مبكرة ، ماكان الرسول يروح فيها ، فمشى رسول الله بالناس يومهم ذلك حتى أمسوا ، وليلتهم حتى أصبحوا ، وصدر يوم ذلك حتى آذنتهم الشمس ، ثم نزل بالناس ، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض ، فوقعوا نياما . وهكذا نهك أبدانهم بالسير ، ليصرفهم عن الحديث فى الفتنة ، فلما بلغ المدينة جاءه عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه ، فقال : يا رسول الله ، انه بلغنى أنك تريد قتل أبى فيما بلغك عنه ، فان كنت لابد فاعلا فسرني به ، فأنا أحمل اليك رأسه ! فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى ! وانى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر الى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل مؤمنا بكافر ، فأدخل النار . فقال صلى الله عليه وسلم ، بل تترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا ، وجعل بعد ذلك اذا حدث الحدث من عبد الله كان قومه هم الذين يعاتبونه ويعنفونه فقال صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتله يوم قلت لى :

---

(١) جلايب قريش : هو لقب لمن كان أسلم من المهاجرين ، لقبهم بذلك المشركون . وأصل الجلايب الأرز الفلاط ، واحدها جلباب ، وكانوا يلتحفون بها ، فلقبوهم بذلك ( من شرح أبى ذر على السيرة ) .



اقتله ، لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . فقال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله أعظم بركة من أمرى .

فى هذه القصة الصغيرة ترون كيف توسل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصبر والأناة فى أخرج الأوقات ، وترون حزمه فى كبح جماح الفتنة بالسير ليل نهار ، حتى صرف الجيش بالنصب عن أن يلج فيها ، وفى هذه القصة صورة موفقة من الرفق فى السياسة والحزم فيها .

ثم هاكم مثلاً آخر : كان رسول الله يوزع العطايا بعد حنين فوقف عليه رجل من تميم ، فقال : يا محمد ، قد رأيت ما صنعت فى هذا اليوم ، فقال رسول الله : أجل ، فكيف رأيت ؟ فقال : لم أرك عدلت .. فغضب النبى ، وقال : ويحك ! إذا لم يكن العدل عندى ، فعند من يكون ؟ فقال عمر : يا رسول الله ألا أقتله ؟ فقال : لا ، دعه فانه سيكون له شيعة يتعمقون فى الدين ، حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرمية .

وقد كانت الخوارج المتشددة بعد ذلك فى تميم .

ولما أعطى النبى قريشا وقبائل العرب ، ولم يعط الأنصار شيئاً كثرت من الأنصار القالة حتى قال بعضهم : لقي والله الرسول قومه ! فجمعهم النبى ، ثم قال : يا معشر الأنصار ، ما قاله بلغتنى ، وجدة وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضللاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ قالوا : بل الله ورسوله آمن وأفضل . ثم قال : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟ قالوا : بماذا نجيب ؟ لله ورسوله المن والفضل . قال : أما والله لو شئتم لقلنم فلصدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولاً فنصرناك ، وطريداً فأويناك ، وعائلاً فأسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار من لعاعة (١) من الدنيا ، تألفت بها قوما ليسلموا ، ووكلتكم الى اسلامكم ؟

(١) اللعاعة : واحدة اللعاع ، وهو النبات الأخضر قليل البقاء ومنه قولهم : ما بقى فى الدنيا الا لعاعة أى بقية يسيرة ، ومنه الحديث « أوجدتم ... » اللسان .

ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله الى رحالكهم ؟ فوالذى نفس محمد بيده ! لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبا وسلك الأنصار شعبا لسلك شعب الأنصار . اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار ! فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا رضيينا برسول الله قسما وحظا !

هذه العبارة الآخذة بالقلوب ، والصاعدة بالنفوس البشرية الى درجة الملائكة ، والقاتلة للفتنة ، والمنعشة للأرواح ، تفسر لنا كيف كان رسول الله يجمع الناس على غرض واحد بوسائل شتى . لقد أتى بسعة الصدر ، وحسن التصرف بما يشبه المستحيل ، فجمع أمة لم تكن لتجمع الا على مثل التريبة والتدبير المحمدي .

جاءه وفد من بنى الحارث بن كعب ، وكان قد بعث فيهم خالد بن الوليد ، فقال : لو أن خالدا لم يكتب الى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا ، لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم . فقال يزيد بن عبد المدان : أما والله ما حمدناك ، وما حمدنا خالدا .. قال : فمن حمدتم ؟ قالوا : حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك . قال : صدقتم ، ثم قال : بهم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية ؟ قالوا : لم نكن نغلب أحدا ، قال : بلى ، قد كنتم تغلبون من قاتلكم ، قالوا كنا نغلب من قاتلنا يارسول الله أنا كنا نجتمع ولا نتفرق ، ولا نبدأ أحدا بظلم ، قال : صدقتم .

انظروا الى رده : « فمن حمدتم ؟ » لتصوروا الأناة وسعة الصدر ، وهما من أسس السياسة المحمدية .

وكان من دواعى النجاح فى سياسة الرسول زيادة على أخذ الأمور بالرفق ، وحسن المعاملة ، فراسته التى لا تخيب فى الرجال ، وتطلعه الى غائب الأمر بحسن الاستخبار ، فقد كان أعرف الناس بالناس ، وأعرف العرب بحسنات العرب وسيئاتهم ولهجاتهم وما يحبون وما يكرهون ، فهو يستقصى دائما الأخبار ، ويكتفى ما يكره ذبوعه منها ، فراسته فى سهيل بن عمرو مثلا

وهو أسير ، قد تحققت بعد سبع سنين ، لما همت مكة بالردة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم ، فعندما ردت قريش أسرى بدر ، وكان عمر يعارض في الفداء ، فاستأذن رسول الله في أن ينزع ثنيتي سهيل بن عمرو ليدلح لسانه ، كي لا يقوم على الرسول خطيبا بعدها في موطن أبدا ، أبى الرسول ، وقال : لا أمثل به ، فيمثل الله بى وإن كنت نبيا ، وعسى أن يقوم مقامنا لا تدمه . فلما ارتدت العرب وهم أكثر أهل مكة بالرجوع عن الاسلام وخافهم عتاب بن أسيد عامل النبی على مكة فتواری ، قام سهيل بن عمرو ، فحمد الله ، وأثنى عليه ثم ذكر وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : ان ذلك لم يزد الاسلام الا قوة ، فمن رابنا ضربنا عنقه ، فتراجع الناس وكفوا عما هموا به ، وظهر عتاب ، واستقرت الأمور .

ذلك هو المقام الذى أراد رسول الله فى رده على عمر بن الخطاب ، وتلك هى فراسة الرسول فى الرجال ، تحققت بعد سبع سنين .

ولما أخذ الخمس من غنائم هوازن وزعه بين أعدائه بالأمس ، فأعطى أبا سفيان وابنه معاوية ، وصفوان بن أمية ، وسهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ، والحارث بن هشام ، وكثيرا غيرهم ، لم يدع لأحد من المؤلفة قلوبهم حاجة الا قضاها ، وبذل للشعراء مثل ابن مرداس حتى أرضاهم . فلم يكن عنصر الجود والبذل عنصرا مفقودا فى سياسته صلى الله عليه وسلم . جاء نذر الى الرسول ، فقالوا : انا بنينا مسجدا لذى العلة والحاجة ، والليلة المطيرة والليلة الشامية ، وانا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه ، فوعدهم أن يأتيتهم بعد أن يرجع من غزوة تبوك ، وكان قد عزم عليها ، فلما رجع علم أنهم يتآمرون فيه على الشر والفتنة ، فأمر به أن يحرق ، فأحرق وفر من فيه . وهو مسجد الضرار الذى يقول فيه القرآن : « والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين » .

وكذلك بلغه أن ناسا من المنافقين يجتمعون فى بيت سويلم اليهودى يشبطون الناس عن رسول الله والخروج معه لغزو الروم ، فبعث اليهم طلحة بن عبيد الله ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل ، وتفرق من فى البيت .

فى هذين المثلين ترون محمدا الواسع الصدر اللين العريكة المتسامح يحرق مسجدا وبيتا للفتنة والتآمر ، ذلك لأن محمدا رجل دولة حاذق ، يداوى كل حالة بما يناسبها من الرفق أو الشدة .

وكان يكره العجب والتظاهر ، وليس فى كل حياته شىء منه ، ولكنه أمر به حين دخل الى مكة بعد هدنة الحديبية ، وقد تحدثت قريش أن محمدا وأصحابه فى عسر وضعف ، فصفوا له عند دار الندوة ، لينظروا اليه والى أصحابه ، فلما دخل رسول الله المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضد يده اليمنى ، ثم قال : رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة ، ثم استلم الركن وخرج يهرول ، ويهرول أصحابه معه ، حتى اذا وراه البيت منهم ، واستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود ، ثم هروا لذلك ثلاثة أطواف ، ومتمى سائرهما ، وقد صنع ذلك لما بلغه من قولهم عن ضعفه وضعف أصحابه .

ولما حاصر الأحزاب المدينة ، ونقض بنو قريظة عهدهم ، وانتهى الى النبى وأصحابه الخبر ، بعث سعد بن معاذ وسعد بن عباد ومن معهم ليحققوا له الخبر ، وقال لهم : ان كان حقا ما بلغنا عن هؤلاء القوم ، فالحنوا لى لحنا أعرفه ، ولا تفتوا فى أعضاء الناس ، وان كان الوفاء فيما بيننا وبينهم ، فاجهروا به للناس . فلما رجعوا سلموا على الرسول ، ولمحوا اليه بأن قريظة غدرت بعهده ، فقال صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

فأنتم ترون فى هاتين القصتين حكمة القائد الأعلى فى بث الرعب فى نفس العدو بالتظاهر بالقوة ، والمحافظة على الروح المعنوى عند الأنصار ، بالتظاهر بعدم الاكتراث ، والتصغير من شأن العدو .

كان صلى الله عليه وسلم حسن الاستخبار ، حسن التكتيم للأسرار ، وكان من بعض ما يلجأ اليه من اخفاء حركاته العسكرية أن يكتب للقائد كتابا يأمره فيه ألا يفرضه الا بعد أن يصل الى مكان معين ، أو بعد أن يسير زمنا معينا .

كان ثابت الرأى ، صادق العزيمة ، ما دخله عجب ولا زهو : ذهب  
 بسياسة اللين الى منتهى حكمته ، ولجأ الى القتال لما لم يبق الا القتال دفاعا  
 عن النفس والعقيدة ، فأظهر فى الصبر واللين آيات السياسة ، وفى الجهاد  
 والقتال غابات البراعة اتسع صدره للرجال والحوادث ، فأثر بشخصه وقوله  
 وعمله فى جميع من حوله ، ومن اتصل به ، فكان مدرسة الرجال ، أخرجت  
 من فتحوا الأرض ، ونظموا الممالك ممن لم يشتغلوا فى مكيدة ، ولا  
 استعجزوا فى شدة .



## من آثار دعوتك

هذا الموضوع لا يلهم أطرافه الا مجلدات ، ولذلك عزمت على حصره في دائرة يسمح بها هذا الفصل الموجز ، فلا أتعرض الا للآثار الخالدة للدعوة المحمدية ، الآثار التي لا يحدها مكان ولا زمان ، وأن أتخير منها ما هو واضح ، وما هو موضع اعجاب الناس كافة ، مهما اختلفت عقائدهم أو مذاهبهم ، ولعلني بهذا أوضح صورة أخرى لبطل الأبطال صلى الله عليه وسلم تكمل تلك النواحي البارزة في حياته الخالدة .

### ١ - في المجتمع

وأول ما خطر أن أوجه التفكير اليه ، هو أثر هذه الدعوة من الناحية الاجتماعية ، في شعب لم يكن يصلح لشيء ، فأصبح في بضع سنين صالحا لحمل الرسالة التي وصلت الى أطراف المشرق ، في سنين معدودة . هي أقل من عشرين سنة .

كان الأثر البارز السريع لهذه الدعوة تغيير أمة تغييرا شاملا حاسما ، بحيث أصبحت شيئا آخر ، تلك الأمة التي نشأت فيها الدعوة : الأمة العربية .

كان العرب قوما فوضى ، في قفر من الأرض ، موضع احتقار المتدينين من الفرس والرومان ، وآخر أمة يرجى فيها خير وينتظر لها أمر . كان العرب في جاهليتهم قبائل متنازعة على الحياة ، متنافسة في السؤدد ، يتنازعون على

مواقع الغيث ومنابت العشب ، كل قبيلة تغتز بقوتها ، وتفتخر بأنسابها  
وماثرها ، وما فخرها وعزها الا في أنها أغارت فغلبت ونهبت ، وأنها ظلمت  
وأفسدت ، فالظلم والنهب عندها محمودة وهو من أغراض الحياة .

انظروا الى قول عمرو بن كلثوم :

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكننا سنبدأ ظالمينا

وقول زهير :

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم  
وانظروا قول القطامي ، وهو شاعر اسلامي يصف بقية الجاهلية في  
القبائل الاسلامية :

فمن تكن الحضارة أعجبت	فأى رجال بادية ترانا
ومن ربط الجحاش فان فينا	قنا سلبا وأفراسا حسانا
وكن اذا أغرن على جناب	وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول	وضبة انه من حان حانا
وأحيانا على بكر أخينا	اذا ما لم نجد الا أخانا

هذا الشعر يصور لنا الحالة العقلية التي كانت عليها القبائل العربية ،  
ويدلنا على عظم الدعوة التي جعلت من قوم يفخرون بنهب أخيهام ، قوما  
يعتزون بنشر السلام والقانون ، والعدل بين الأبيض والأسود في آسيا  
وأفريقية ، هؤلاء الجفاة المتنابدون قد أصبحوا في جيل واحد رسل الحضارة  
والنظام . كان الرجل منهم لا يعترف الا بقييلته ، فاذا تنازعت لا يعترف الا  
بالطن الذي ينتسب اليه ، وينكر على غير عشيرته حق الحياة . وكان أفراد  
العشيرة لا يتعاونون ، ولا يتكاتفون على خير عام ، بل لا يفهمونه ، لأنهم  
ينكرون وجود الأمة العربية انكارهم للبشرية . ويرون الحياة قائمة على  
الخصومة والعداء لكل أحد خارج عن نطاق العشيرة ، فكانت العشيرة على  
هذا الاعتبار عصابة متكافلة على حماية نفسها ، وإتيان الشر ما استطاعت



الى ذلك سيلا ، والاعتزاز بالقدرة عليه ، وأنها تأتيه دائما ، فجاءت الدعوة المحمدية تنقض كل ما يتمسك به العربى من هذه الموارث ، فحلت هذه العصابة الموجهة للشر باسم العشيرة ، وأحلت محلها الأمة ، وأقامت الحقوق البشرية ، وجعلت التعاون على البر ، والتكافل على النظام العام ، والاتحاد على الفكر السامى والعقيدة الطاهرة مكان علاقة الدم التى تربط بين الناس فى سفك الدم ، ونهب ما بأيديهم ، فقلبت بذلك نظرة العرب الى نقيضها ، وجعلتها نظرة انسانية الهية ، بعد أن كانت بهيمية وحشية ، أحلت سلطان الشريعة فوق كل سلطان ، وجعلت هيمنة الدولة للخير العام فوق كل هيمنة ، وذهب القصاص الظالم ، وقام القصاص العادل ، وصارت المسؤولية الفردية للعشيرة ، مكان المسؤولية الاجتماعية لها : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » « كل نفس بما كسبت رهينة » . « وأن ليس للانسان الا ما سعى » وصارت العزة للشرع القاهر ، والسلطان القائم عليه ، وحرمت دعوى الجاهلية : بالغال ، وأصبح كل داع للشرع دعوته ، وبالقانون انتصاره ، وبالعادل اعتصامه .

برزت المسؤولية الشخصية ، فما يغنى عن أحد دعوى الجاهلية ، ولا يغنى عن أحد فى ميدان العمل نسبه ولا حسبه ولا جاهه ولا ماله « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » . « انها ان تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله » .

أصبح الناس بالدعوة المحمدية سواء ، لا شريف ولا وضيع ، خيرهم أحسنهم عملا ، وسيدهم أنفعهم ، وأكرمهم أتقاهم « يأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم » . انظروا الى محمد صلى الله عليه وسلم فى خطبة الوداع ، يعلن هذه المساواة للعرب على أنها للبشر كافة « أيها الناس كلکم لآدم وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » .

تلك هي الكلمة الخالدة التي كانت دستور الحكم فيما فتح العرب من الأرض ، فجعلت الفتح العربى بعيدا من رفعة قوم على قوم أو جنس ، فلم يصبه ما أصاب غيره من الفتوح ، وبقيت آثاره خالدة فى المشرق والمغرب .

قضت الدعوة المحمدية على التنافس والغلب بالكييفية التي سقتها ، وأحلت هذا التنافس والغلب لاقرار الحق ، وبسط الخير ، ولم يبق فى الشرع الذى قبله العرب الا تنافس فى الأعمال الصالحة « فاستبقوا الخيرات الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون » .

وهكذا حلت الأمة محل القبيلة ، والعدل مقام الغلبة ، والمساواة مكان التفاضل والعمل الصالح مكان الفخر بالآباء ، وملئت القلوب حبا وسلاما ، بعد أن كانت مملوءة بغضا ونزاعا « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ... الى قوله : لعلمكم تتقون (١) » .

كان قلب العربى موزعا بين آلهة شتى ، قد التبست عليه صفاتها وأفعالها ، يفرع اليها حينا ، وينفر منها حينا ، ويلتمس منها الخير ، فان لم ينظر به هجرها وسبها ، كما يفعل الآن زنوج السودان مع « كجورهم » يسألونه المطر ، ويصبرون عليه ، فاذا يسسوا من الرحمة قتلوا « الكجور » وهو معبودهم .

لم تكن أمام العربى سبيل واضحة للعمل فى هذه الحياة ، كما لم تكن له خطة بينة لمعاملة الناس ، فلقنته الدعوة المحمدية الايمان باله واحد ، وهدته الى الحلال والحرام فى كل صغيرة وكبيرة ، فصار على بينة من ربه وعلى بينة من نفسه ، وعلى بينة من عمله .

وعقيدة المسلم علمته التوحيد فى كل شيء ، علمته أن الله واحد ، وأن أصل البشر واحد ، وأن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأن الأمم جميعا سواء ، وأن الأديان التي جاء بها الرسل واحدة ، لا تختلف فى حقائقها

---

(١) الآيات ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ من سورة الانعام .

ومقاصدها ، « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ... » الخ . وحدث له الخطة التي يعمل عليها فى خاصة نفسه ومعاملة الناس . وحدث الدعوة المحمدية نفس العربى ، ثم وحدث العرب جميعا ، وصاغت منهم أمة واحدة ، وحملتهم رسالة التوحيد الى الناس كافة ، ليجعلوهم أمة واحدة .

فهذه الأمة الواحدة المؤلفة من أرقى الموحدين هى التى انبعثت بسبب هذه الدعوة ، فلم يقف فى سبيلها شئ ، لا كثرة العدد ، ولا قوة السلاح ، ولا العقائد الموروثة ، ولا عظمة الملوك ، ولا تجبر الرؤساء ، بل كانت قدرا من الله بلغ غايته ، ومن ذا يرد على الله القدر ؟!

هذا التوحيد هو عندى أظهر معجزات الدعوة المحمدية . وليدرك الناس وجه الإعجاز ، يجب أن ينظروا الآن الى جزيرة العرب نفسها وقد شملها الاسلام قرونا ، ثم عادت فيها سيرة الجاهلية بحالة أخف كثيرا ، بل أهون مائة مرة مما كانت عليه قبل ظهور رسالة التوحيد فيها ، وليقدر كم يلقي الذى يريد أن يبعث هذه الأمة مرة أخرى من عنت ؟ ان كثيرا من المصلحين ليتحطمون على عتبة الإصلاح قبل أن يصلوا الى شئ مما وصلت اليه الدعوة المحمدية فى بضع سنين . اذا تصورتهم الحالة الحاضرة ، وقستموها على الحالة وقت ظهور الدعوة يمكنكم أن تتصوروا أثر الدعوة المحمدية وقوتها وفضلها على هذه الأمة ، وعلى الناس كافة .

جاءت الدعوة المحمدية مع رسالة التوحيد هذه برسالة أخرى ، هى رسالة التحرير ، وتركت فى هذه أثرها الخالد فى الأمة العربية وجميع الأمم كما تركت فى الأولى ، فصرخ مؤذن هذه الرسالة : الله أكبر ! وتضاءلت بهذه الصرخة كل عظمة ، وكل سيطرة أمام عظمة الله وسيطرته ، وتحررت النفوس من الأوهام الباطلة ، والعقائد الكاذبة ، وصارت العبودية خالصة لله ، يتسلاوى الناس فيها ، ويتحررون بذلك من سواها .

وهذا الذى انفرد بالسلطان والسيادة وحق العبودية هو الله « هو الذى

يصلى عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيما تحيتهم يوم يلقونه سلام وأعد لهم أجرا كريما » هو الله « والله يدعوا الى دار السلام ويهدى من يشاء الى صراط مستقيم » هو « الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات » .

بهذه المعانى السامية ، والعبارات القوية ، بهذه الآيات الكريمة وأمثالها تحررت النفوس من العبودية لغير خالقها البر الرحيم بها ، هاديها الى النور والى صراط مستقيم .

وكان الناس قبل الدعوة المحمدية عبيدا للملوك والزعماء ، عبيدا للرؤساء الدينيين ، عبيدا للأوهام والخرافات ، عبيدا لملاك الأرض وملاك الثروة فتحرروا بهذه الدعوة المحمدية ، تحرروا فى أبدانهم ، وأعظم من ذلك أن تحررت نفوسهم بما وهبت لها الدعوة من عقيدة الخلود وعزته ، وأن عملها ليس أثرا بائدا بل مسجلا خالدا خلود قوانين الله فى خليقته .

علمت الدعوة المحمدية الناس أن النفع والضرر بيد الله وحده ، وأن لا واسطة بين الانسان وربه ، وأن ربه أقرب اليه من جبل الوريد (١) ، وأنه معه حيثما كان ، وأن ليس لأحد سلطان على قلبه ، وليس للرسول نفسه الا التبليغ والتعليم « فذكر انما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر » « فان أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا » .

بهذا أدرك الانسان مكائنه ، ونال حريته فى عقله وقلبه وفكره وعمله ، ربقى للدعوة المحمدية أثرها الخالد فى توحيد الناس وتحريرهم .

وليس أجمع لدرجات نمو النفس المسلمة من وصف محمد لنفسه ، وهو كما رواه على : « المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب

---

(١) جبل الوريد : عرق فى العنق . أى نحن اعلم بحاله ممن كان أقرب اليه من جبل الوريد تجوز بقرب الذات لقرب العلم ( لانه موجب ، وجبل الوريد مثل فى القرب . ) انظر تفسير البضاوى .

أساسي ، والشوق مركبي ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والفقر فخرى ، والزهد حُرْفَتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خلقى ، وقرة عيني فى الصلاة » .

\*\*\*

## ٢ - فى الفرد

ولكى نستعين على تصور هذا الأثر فى الفرد لنستحضر أمامنا مثلاً عمر ابن الخطاب .

كان عمر فى جاهليته فتى من فتيان قريش ، يغشى مجالس السوء ، وبؤر الشر ، وكانت مكة فى ذلك العصر ممتازة بين حواضر الجزيرة بترفها ومنكرها ، تجذب طلاب الطرب واللهو ، ولم يكن عمر فى هذه المدينة شاذاً ، بل كان معلماً بالفتوة والغلظة ، معروفاً بالقسوة والشراسة ، مستعداً فى كل الحالات للتسلط بالأذى على من يخالفه ، ولاثارة الفتنة والشغب فيما جل أو صغر ، لذلك كان من أخطر فتيان مكة على الدعوة المحمدية ، وأنشطهم فى أذى أتباعها ، فلم يسلموا من لسانه الجارح ، ويده الباطشة . ولما رآته ليلى بنت أبى حنيفة وله رقة لم تكن تراها ، ذكرت ذلك لرجل من المسلمين ، فقال لها : أطمعت فى اسلامه ؟! انه لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب .. هذا الذى لم يكن تلاميذ محمد يطعمون فى هدايته أكثر من طعمهم فى هداية الحمار ، هو الذى جذبته الدعوة ، فلما هذبته وصقلته ، أخرجت منه عمر أمير المؤمنين ، قاهر الفرس والروم ، وجعلت منه المثل الكامل فى الرفق والإنصاف ، والعدل ، وأكبر القضاة والسياسيين والملوك فى تاريخ البشر . فعلت الدعوة المحمدية فعلها فى الفرد ، ثم شمل سحرها الجماعة ، فبدلت الناس غير الناس ، والأرض غير الأرض .

خلصت الفرد من سلطان العقائد الباطلة ، وأصلحت قلبه وفكره بالعقائد الصحيحة ، وهذبت نفسه بالشرائع القويمة ، والسنن الصالحة ، والقدوة الحسنة التي وجدها في المثل الأعلى ، في محمد صلى الله عليه وسلم : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » .

أقرت الدعوة المحمدية في نفوس أصحاب محمد حب العدل وحب الانصاف ، في بيئة لا تعرف الحق الا للقوة ولا تدين بالانصاف الا للسيف ، فوطأت النفوس للحق . انظروا الى عمر بعد أن هذبتة الدعوة ، تعترضه امرأة وهو أمير المؤمنين يخطب الناس ، فيمسك من فوره ، ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر ! وانظروا اليه وقد شج رأس أخته في الجاهلية يبكي وهو أمير المؤمنين لرؤية بئس ، ويخشى أن يلقي الله وفي الناس بئس .

تلك آثار الدعوة في نفوس جفاة العرب ، قد جعلت من رعاة الابل والشاء وصغار التجار في مكة ، والفلاحين في المدينة ، رجالا ، كلما احتاج تاريخها الى واحد منهم وجده مهياً للإمارة على الناس من كل الأجناس ، كأنما نشأ فيها ، ودرج لها . رجالا قوامين بالقسط ، كما أراد القرآن : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خير بما تعملون » . « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس » .

وليس نجاح الفتح العربى ، وانتشار الدعوة الا أثرا لسحرها في تغيير النفوس وتوجيهها للخير ، ولولا رجال أعدتهم المدرسة المحمدية للسُّل العلياء ، أعدتهم لارشاد البشر وقيادته وحكمه ، لما تجاوز الفتح الاسلامى الجزيرة العربية ، ولذهبت آثاره بموت الرسول وارتداد الأعراب ، ولكن الشباب الذين طبعتهم الدعوة بطباعها استمروا يفيضون على جيلهم ما أودعوا من فيض الرسول ثلاثين سنة بعد وفاته ، فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، الخلفاء الراشدون ، لم يكونوا الا شباب الرسالة وقت أن أسرها ثم جهر بها محمد للناس .

وليتبين لنا واضحا أثر الدعوة المحمدية في نفوس الشباب الذين هاجروا للحبشة ، وخالفوا آباءهم وكبراءهم في سبيل عقائدهم ، نذكر لكم موقف جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي فهو موقف يدل على امتلاك الدعوة المحمدية لنفوس من اجتذبتهم ، كما يبين لنا موضوع الدعوة نفسها ، كما فهمها المهاجرون والمهاجرات ، بل كما فهمها أنصارها في ذلك العصر .

خرج أولئك السابقون لتلبية الرسول ومعهم من الفتيان والفتيات من ينتسبون لمختلف البطون في قريش ، ويتصلون بالقرابة لأعظم رجال مكة ، وأشدد خصوم الدعوة ، وفيهم أبناء وبنات لأمثال المغيرة ، وسهيل بن عمرو ، وأممية بن خلف ، فبعثت مكة في أثرهم رجلين من دهاتها : عمرو بن العاص ، وعبد الله بن أبي ربيعة . ومعهم هدايا مما يستطرف النجاشي من متاع مكة ، له ولكل بطريق (١) من بطارقه ، وأوصوهما أن يدفعا لكل بطريق بهديته قبل أن يكلما النجاشي ، ثم يسلما النجاشي هديته ، ويسألاه تسليم اللاجئين .

فلما وزعا الهدايا قالوا لكل بطريق منهم : قد أوى الى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أئمتنا ، وقد بعثنا الى الملك فيهم أشراف قومهم ، من آبائهم وأعمامهم وعشائريهم ليردوهم اليهم ، فاذا كلمنا الملك فيهم ، فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ، ولا يكلمهم فان قومهم أعلى بهم عينا ، وأعلم بما عابوا عليهم . فقالوا لهم : نعم . ثم سلموا للنجاشي هداياه ، وقالوا له مثل الذي قالوا للبطارقة ، فأشار البطارقة بتسليمهم ، ولكن النجاشي أبى أن يأمر بذلك حتى يسمع قول المهاجرين ، فدعاهم وسألهم : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فقام جعفر ، وكان اللاجئين قد اختاروه ، واتفقوا على أن يقول ما علموا ، وما أمر به النبي ، كائنا في ذلك ما هو كائن . فقال : أيها الملك ، كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأثي الفواحش ، ونقطع الرحم ، ونسئ

---

(١) البطريق : القائد من قواد الروم .

الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف ، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة ، والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنة ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا ، وضيقوا علينا الخناق ، فخرجنا إلى بلادك ، ورجعنا في جوارك ، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال جعفر : نعم ، قال النجاشي : فاقرأه ، فقرأ صدرا من « كهيعص » ، فبكى النجاشي ، ثم قال : ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .

هذه هي الدعوة كما فهمها شباب ذلك العصر ، بل كما فهمها أشد الناس تعلقا بها ، وهذا هو أثرها منطبعاً في نفس ذلك الشاب القرشي ، يحدث عنها ملكا من الملوك بثقة وبقوة .

انكم لتلمسون في كلمات جعفر الموجزة صورة كاملة للدعوة المحمدية ، والمجتمع الذي نشأ عنها ، فقد بدلت الدعوة وجهة نظر الفرد للحياة تبديلاً تاماً ، كما قلبت أوضاع الاجتماع العربي إلى عكس ما اصطلاح الناس عليه ، وابتدعت كما يقول رسل قريش جديداً لم تعرفه العرب ، ولا غير العرب .

ذلك الجديد هو الرسالة المحمدية ، وأثرها هو الانقلاب الذي شمل العرب وجيرانهم ولازلنا ولا يزال الناس في آثاره حتى آخر الدهر .

ظفرت الدعوة وطأطأت كما يقول « هيل » . أمة لارادة رجل واحد ، لأنه نفخ فيها من روحه إيماناً قويا سامياً وأحل في قلبها الفضيلة خالصة



نقية ، ووجهها على جادة العظمة والفتح العالمى . ولقد كان الاتحاد والتعاون منكرا لا يعرفه العرب الا فى حدود العشيرة ، وكان الكبر والفخر والجاه والمال أسمى ما يتطلع الناس اليه ، فلما نجحت الدعوة المحمدية قامت وحدة العرب على تضامن الأغنياء والفقراء والأقوياء والضعفاء ، فأصبحت المؤسسة حقا مفروضا على الأغنياء ، عليه يقوم تكافل المجتمع ، وعليه تقوم الدولة التى ولدتها الدعوة الجديدة .

تبدلت نظرة الفرد للحياة تبديلا تاما ، وانقلب النظام الاجتماعى بما ابتدع الاسلام من الأصول ، وما وضع من الشرائع .

وقد عبر العلامة « هيل » فى كتابه « حضارة العرب » عن أثر الدعوة المحمدية بهذه الكلمة القوية .

« ان جميع الدعوات الدينية قد تركت أثرا فى تاريخ البشر ، وكل رجال الدعوة والأنبياء قد أثروا تأثيرا عميقا فى حضارة عصرهم وأقوامهم ، ولكننا لا نعرف فى تاريخ البشر أن دينا انتشر بهذه السرعة ، وغير العالم بأثره المباشر ، كما فعل الاسلام ، ولا نعرف فى التاريخ دعوة كان صاحبها سيدا مالكا لزمانه ولقومه كما كان محمد .

لقد أخرج أمة الى الوجود ، ومكن لعبادة الله فى الأرض ، وفتحها لرسالة الطهر والفضيلة ، ووضع أسس العدالة والمساواة الاجتماعية بين المؤمنين ، وأحل النظام والتناسق والطاعة والعزة فى أقوام لا تعرف غير القوضى » .

تلك بعض آثار الدعوة المحمدية فى الفرد وفى الجماعة ألمنا بها اجمالا فى هذا الفصل من هذا الكتاب ، وقد فصلنا هذا الاجمال فى ( الرسالة الخالدة ) .



## وصف صورته

أما بعد ، فإن كل ما تقدم كان وصفا للمعاني الالهية والانسانية الفائقة التي كانت تعمر عقل بطل الأبطال وخاتم النبيين وقلبه ، وكانت ملاك روحه وقوام فكره وخلقه ، وهى سر الله الخالق فى الانسان الكامل الذى جعله قمة هذا النوع الانسانى ومنار الأسوة والقُدوة لأفراده وأبطاله فيما أعقبه من الدهور .

ولكن حب البشر لرؤية « الجسم » الذى تمثلت فيه هذه المعانى والأسرار يحتاج الى تكميل الصور المعنوية التى رسمتها فصول هذا الكتاب بوصف الصورة الجسمية التى كانت وعاء لهذه المعانى والأسرار .

وهاهى ذى كما وصفها على كرم الله وجهه . قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بالطويل ولا بالقصير ، ضخم الرأس واللحية ، شثن الكفين والقدمين ( أى أنهما الى الغلظ أقرب ) ضخم الكراديس ( ألواح الأكتاف ) مشربا وجهه حمرة ، طويل المسربة ( الشعر ما بين السرة واللبة ) وإذا مشى تكفأ تكفأ ( أى يميل الى الأمام ) كأنما ينحط من صلب ( انحدار ) ، لم أر قبله ولا بعده مثله ! وكان أدعج العينين ( الدعج شدة السواد وشدة البياض ) سبط الشعر ( سهلا غير ملبد ) سهل الخدين ( غير مرتفع الوجنتين ) ذا فروة ( ما وصل الى شحمتى الأذن من الشعر ) كأن عنقه ابريق فضة ، وإذا التفت التفت جميعا ، كأن العرق فى وجهه للؤلؤ الرطب لطيب عرقه وريحه » .

هذا هو وصف ( صدفته ) الشريفة التي ضمت لؤلؤته اليتيمة الفذة !  
وفيها تستبين مخايل العظمة وشواهد الكمال التي أرادها الله عز وجل لأجسام  
النوع الانساني . ولا عجب بعد هذا الكمال الجسماني والروحاني أن يكون  
كل من رآه بديهة هابه ، وكل من خالطه أحبه ذلك الحب الباذل الفادي  
المؤمن ... صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

## فهرس

### صفحة

٣	تقديم
٧	مقدمة الطبعة الأولى
٩	مقدمة الطبعة الثانية
١١	بحثه عن الحق وثباته عليه
١٩	شجاعته
٢٧	وفاءه
٣٥	زهده وقناعته
٤٥	تواضعه وتياسره
٥٣	تعبدته ونسكه
٦١	عفوه وصفحه
٦٧	رحمته وبره
٧٥	فصاحته وبلاغته
٨٣	حسن سياسته وحكمته فى تصريف الأمور
٩٧	آثره فى التربية العسكرية
١٠٣	الناحية العسكرية فى بدر
١٠٩	دفاعه عن حرية العقيدة
١١٧	مثل من سياسته
١٢٥	من آثار دعوته
١٣٧	وصف صورته





مطابع شركة الاعلانات الشرقية